جامعة الأزهر
كلية البنات الأزهرية
بطيبة

المجلة العلمية

الحِجاجُ القُرْآنِيُّ لِلْكُفَّارِ وَأَثَرُهُ فِي تَحْقِيقِ مَعْنَى الإِخْلَاصِ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ
(دِرَاسَة بَلَاغِيَّة)

إعداد
د / عَلِي مَحْمُود عَبَّاس مُوسَى
أُستاذ البلاغة والنَّقد المُساعِد
بكلية الدِّراسات الإسلاميَّة والعربيَّة للبنين بقنا

ملخص البحث باللغة العربية

جاءت هذه الدراسة التي بعنوان : (الحجاج القرآني للكفار وأثره في تحقيق معنى الإخلاص في سورة الزمر) لتكشف طريقة النظم الكريم في توظيف أساليبه لتحقيق مقاصده ومراميه ، فالسُّورة القرآنية لها مقصد وغرض ، سارت نحوه بكلِّ بنائها : (مفردة وأسلوبا ونظما) ، مُجسدة الإعجاز القرآني في أبلغ صوره ، وأكمل أحواله.

وقد كان مِن مقاصد النَّظم التي اشتمل عليها كتابه الكريم تجسيد معنى الإخلاص ، وذلك بأن يخصّ العبد ربَّه بالعبادة ، ويفرده وحده دون غيره مِن سائر المخلوقات بالوحدانية ، فكانت سُورة الزُّمَر مِن مطلعها إلى خاتمتها لهذا الغرض ، الذي يُجلّي عظمة الذَّات العليَّة ، التي مِن أجلها شُرعتْ العبادة ، وأُوجبتْ الطَّاعة.

وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج من أبرزها تبيان ما للإخلاص من أثر واضح في خصوصية الحجاج القرآني ، حيث إنه قد آثر من الأساليب أو الآليات الحجاجية ما يتفق وطبيعة تحقيق هذا المعنى في الأفهام ، فأسلوب الفرض والتقدير من أقرب الطرق التي تحقق هذا المعنى ، لما فيه من دلالة التأبيد المطلق ، فضلا عن ما يشتمله الأسلوب من المبالغة والتحقيق والتأكيد .

وطريق الاستدلال يدفع بالبرهان الساطع ما قد يتوهم أن غير الله ــ سبحانه وتعالى ــ متصف بصفات الكمال التي توجب إفراده وحده بالعبادة . وأما ضرب الأمثال فقد أبرز في صورة لا تخطئها العين ــ لما يحمله من توضيح وكشف وبيان ــ حقيقة الإخلاص وكأنه يرفع الأستار ويزيل الحجب ، ويكشف عما وراءها من خفاء ، وهذه هي طبيعة الأمثال ، وما توظف له .

كلمات مفتاحية : الحجاج القرآني ــ الإقناع ــ الإخلاص ــ سورة الزمر .

Research summary in English

This study, entitled: (The Quranic Pilgrims of the Disbelievers and its Effect on Realizing the Meaning of Sincerity in Surat Al-Zumar) came to reveal the method of decent systems in employing its methods to achieve its purposes and goals. In the most informed of his photos, and completed his conditions.

One of the intentions of the systems included in his noble book is the embodiment of the meaning of sincerity, in that the servant belongs to his Lord in worship, and unites him alone exclusively from other creatures with monotheism. Worship, and obedience is obligatory.

The study reached several results, the most prominent of which is to show the sincerity of a clear impact on the privacy of the Quranic pilgrims, as it has many pilgrimage methods or mechanisms consistent with the nature of achieving this meaning in the understandings. A sign of absolute perpetuity, as well as the exaggeration, investigation and assertion involved in the method.

The path of reasoning pays with bright proof what might be fancied that other than God - the Most High, the Exalted - is characterized by the qualities of perfection that compel him to be alone with worship

As for striking proverbs, it was highlighted in an unmistakable picture - for the explanation, revelation, and statement it carries - the truth of sincerity, as if it raises the curtain and removes the shadows, and reveals the hidden behind them, and this is the nature of the proverbs, and what it employs.

Key words: Quranic pilgrims, persuasion, sincerity, Surat Al-Zumar.

" إِنَّكَ إِنْ أُوتيتَ تَقريرَ حُجّة اللَّهِ فِي عُقُولِ الْمُكَلَّفِينَ ، وَتَخْفِيفَ الْمَؤُونة عَلَى الْمُسْتَمِعينَ ، وتزيينَ تلكَ الْمَعَاني فِي قُلُوبِ الْمُرِيدِينَ ، بالألفاظِ الْمُسْتَحْسَنة فِي الآذَانِ ، الْمَقْبُولَة عِنْدَ الأذْهانِ ، رَغبةً فِي سُرْعَةِ استِجابَتهم ، ونَفْيِ الشّواغلِ عَنْ قُلُوبِهِم بالْمَوعِظَةِ الحَسَنةِ ، عَلَى الكِتابِ وَالسّنّة ، كُنْتَ قَد أُوتِيتَ فَصْلَ الخِطَاب "

(الجاحظ : البيان والتبيين ١ / ١١٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة البحث

الحَمد لله ربّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، سَيِّدنا مُحَمَّد الذي أُرسل رحْمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه ، ومَن سار على دربه ، واقتفى أثره إلى يوم الدين .

وبعد :

فالسُّورة القرآنية لها مقصد وغرض ، سارت نحوه بكلِّ بنائها : (مفردة وأسلوبا ونظما) ، مُجسدة الإعجاز القرآني في أبلغ صوره ، وأكمل أحواله .

وقد كان مِن مقاصد النَّظم التي اشتمل عليها كتابه الكريم تجسيد معنى الإخلاص ، وذلك بأن يخصّ العبد ربَّه بالعبادة ، ويفرده وحده دون غيره مِن سائر المخلوقات بالوحدانية ، فكانت سُورة الزُّمَر مِن مطلعها إلى خاتمتها لهذا الغرض ، الذي يُجلّي عظمة الذَّات العليَّة ، التي مِن أجلها شُرعتْ العبادة ، وأُوجبتْ الطَّاعة.

فمَن يُطالع نظم هذه السُّورة الكريمة يدرك أنَّ بناءها جرى خلف هذا المقصِد الذي أشرنا إليه آنفا ، وقد كان أسلوب الحِجَاج هو العِماد الذي ارتكزت عليه السُّورة الكريمة في بنائها التَّركيبيّ ، فقد سَرى في مفاصل السُّورة جميعها منذ المطلع، وحتَّى الخاتمة ، ومِن ثَمَّ جاءت هذه الدِّراسة بعنوان : (الحِجَاج القُرآنيُّ وأثرُه في تحقيق معنى الإخْلاص في سُورة الزُّمَر ــ دِرَاسة بلاغيَّة) لتكشف طريقة النَّظم الكريم في توظيف أساليبه لتحقيق مقاصِده ومرامِيه ، وقد كان ذلك وفْق مَنهَج الحِجَاج القُرآني الذي اعتمدت عليه الدِّرَاسَة ، وكان ذلك علَى النَّحْو الآتِي :

أولًا : قراءة السُّورة الكريمة قراءة متأنية للوقوف على الأساليب البلاغية التي شكَّلت بِنية السُّورة ، وكوَّنت ملمحا أسلوبيا كان بمثابة الوشاح لها .

ثانيًا : الوقوف على مقصود النَّظم الحكيم الذي أخذ بناصية بناء السُّورة التركيبي فجاء تابعا مُنْقادا له .

ثالثًا : انتخاب أحد الأساليب البارزة وأهمّها في السُّورة الكريمة ، الذي كان له أثر فاعل في تحقيق مقصود السورة ليكون مناط الدراسة ومدارها .

رابعًا : الوقوف إجمالا على مواضع الحِجَاج في السُّورة الكريمة .

خامسًا : تقسيم تلك المواضع وفق الأساليب التي جاءت عليها ، فهذا الحِجَاج عن طريق أُسلوب الفَرْض والتَّقدِير ، وذاك الحِجَاج عن طَريق ضَرب المثل ، وتيك الحِجَاج عن طَريق الاستدلال ، وهكذا دَوَالَيك .

سادسًا: تحليل صُور الحِجاج في السُّورة الكريمة بِنية ودَلالَة ، تحليلا مِن شأنه الوقوف على سَمت الأُسلوب في السُّورة الكريمة ، ومُحَاولة إبراز مَدَى علاقته بالإخلاص ما أمْكن .

سابعا : بيان طريقة النَّظم الكريم في توظيف الأساليب البلاغية لتحقيق مقاصد سورة الزُّمَر ومراميها .

هذا ، وقد اقتضت طبيعة الدِّراسة في هذا الموضوع أن يجيء في ثلاثة مباحث ، تسبقها مقدمة وتمهيد ، وتعقبها خاتمة ، وفهرس يجمع مصادر الدِّراسة ومراجعها .

أمَّا المُقدّمة ، فاشتملت على : أهمية الموضوع ، ومنهج البحث ، وخطته .

وأمَّا التمهيد ، فقد اشتمل على أمور ثلاثة :

أولًا : سورة الزُّمَر ، وبيان مقصودها .

ثانيًا : إطْلالَة على أُسلُوب الحِجَاج .

ثالثًا : تفاعُل مَعنى الإخلاص مع الحِجَاج في سورة الزُّمَر .

وأما مباحث الدراسة فكانت على النحو الآتي :

المبحث الأول فقد جاء بعنوان : بلاغة الفرض والتقدير في تحقيق معنى الإخلاص .

المبحث الثاني : بلاغة ضرب المثل في تحقيق معنى الإخلاص .

المبحث الثالث : بلاغة الاستدلال في تحقيق معنى الإخلاص .

وأمَّا الخَاتمة فأوجزتْ أهمّ نتائج الدِّراسة .

وختامًا : أسألهُ سُبحانه أنْ يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يُثيبني عليه بفضله لا بعدْله ، وأنْ يغفر لي زلَّاتي ، وأنْ يتجاوز عن تقصيري ، وأعوذ به سُبْحانه مِن عِلْم يقود صَاحبه إلى النَّار ، إنَّه ولي ذلك ، والقادر عليه .

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(البقرة : آية ٣٢)

****

التَّمهِيد

وفيه أمور ثلاثة :

الأول : سُورة الزُّمَر وبيان مقصودها .

الثاني : إطلالة على أسلوب الحِجَاج .

الثالث : تفَاعُل معنى الإخلاص مع الحِجَاج في سورة الزُّمَر .

أوَلًا : سُورة الزُّمَر ، وبيان مقْصُودها الرَّئيس .

يرسم البحث هُنا في هذا المطلب صُورة لسُورة الزُّمَر تتبين فيها ملامحها الأساسيَّة ، وذلك مِن خلال توضيح : مكان نزولها ، وعدد آياتها ، ووجه اتِّصالها بمَا قبلها ، ثُمَّ بيان مقصودها الرَّئيس ، وهو الغاية الأسمَى مِن هذا المَطْلب ، وذلك مِن خِلال أقوال أهل العلم المُحَقِّقين في هذا الباب ، جزاهم الله عن العِلم وأهله خير الجزاء .

فَسُورة الزُّمَر أغلب آياتها مكية ، وعدد آياتها أربع وسَبعُون آية .

نزلت بمكَّة ، غير ثلاث آيات : هي مِن قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (١)

هذا ، ولا يخفى وجه اتصال أولها بآخر (ص) ، حيث قال في (ص) : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ثمَّ قال هنا :﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فكأنَّه قيل : هذا الذكر تنزيل ، وهذا تلاؤم شديد ، بحيث لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة ، وقد ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم

(١) الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري ــ تح : زهير الشاويش ــ محمد كنعان ١ / ١٤٩ ــ ط : المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠٤هـ .

عليه السَّلام ، وذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه ، وخلق النَّاس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ، ثمَّ ذكر أنَّهم ميِّتون ، ثمَّ ذكر وفاة النَّوم والموت ، ثمَّ ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة ، وقال: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فذكر أحوال الخلق مِن المبدأ إلى المعاد متَّصلاً بخلق آدم المذكور في السُّورة التي قبلها [١]

هذا ، والحقيقة ــ كما يذكر صاحب الظِّلال ــ أنَّ المتدبِّر لسور القرآن الكريم على اختلافها مِن حيث الطُّول والقصر يعرف : " أنّ لكل سورة من سوره شخصية مميزة ، شخصية لها روح يعيش معها القلب ، كما لو كان يعيش مع روح حيّ مميّز الملامح والسمات والأنفاس ، ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاصّ . ولها جَوّ خَاصّ يظلل موضوعاتها كلّها ، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة ، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجوّ . ولها إيقاع موسيقي خاصّ ـــ إذا تغيَّر في ثنايا السِّياق فإنَّما يتغيَّر لمناسبة موضوعية خاصَّة .. و طابع عام في سُور القرآن جميعا .." [٢]

وعلى هذا ، فإنَّ لكلّ سورة مِن سُور القرآن الكريم مُرادا قصده النَّظم وعناه ، وجعل جميع ما في السُّورة مِن معانٍ وأخبار وقصص ناظرا إليه وملتفتا نحوه ، وهو ما يُسَمِّيه أهل العلم المقْصود الرَّئيس ، ومقصود هذه السُّورة الكريمة (سورة الزُّمَر)

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ــ تح : عبد القادر أحمد عطا ــ ١ / ١٢٩ ــ ط : دار الاعتصام ــ القاهرة .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم ١ / ٢٨ ــ ط دار الشروق ــ القاهرة .

الذي نطمئن إليه هو تحقيق معنى الإخلاص .

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لَّما بُنيت سورة (ص) على ذكر المشركين وعنادهم وسوء ارتكابهم واتخاذهم الأنداد والشركاء ، ناسب ذلك ما افتتحت به سُورة الزُّمَر مِن الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال مَن تقدَّم ، وذكر ما عنه يكون ، وهو الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ وجاء قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ فى معرض أن لو قيل : عليك بالإخلاص ودع مَن أشرك ولم يخلص ، فسترى حاله ، وهل ينفعهم اعتذارهم بقولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ وهؤلاء هم الذين بُنيت سورة (ص) على ذكرهم ، ثم وبَّخَهُم الله تعالى وقرَّعهم ؛ فقال : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ ﴾ ، فنزَّه نفسه عن عظيم مرتكبهم

بقوله ــ سبحانه ــ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ . (١)

وذكر البقاعي ــ رحمه الله ــ أنَّ مقصود السُّورة الكريمة هو : " الدلالة على أنَّه سبحانه صادق الوعد ، وأنَّه غالب لكلّ شيء ، فلا يعجل ؛ لأنَّه لا يفوته شيء ، ويضع الأشياء في أوفق محالها ، وعلى ذلك دلت تسميتها بالزُّمَر للإشارة بها إلى أنَّه سُبحانه أنزل كلا من المحشورين داره المعدة له ، بعد الإعذار في الإنذار ، والحكم بينهم بما استحقه أعمالهم عدلا منه سبحانه في أهل النار ، وفضلا على المتقين الأبرار، وعلى مثل ذلك دلَّت تسميتها بالغرف ، ولاسيَّما مع ملاحظة ختْم الآية بقوله تعالى : (وعد الله لا يخلف الله الميعاد) " (٢)

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعى ١٦ / ٤٣٨ ــ ط : دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي ــ تح : د عبد السميع محمد أحمد ٢ / ٤٢٣ ــ ط : مكتبة المعارف ــ الرياض ــ ط : أولى ــ ١٤٠٨ ه ــ ١٩٨٧ م .

تذكر الدكتورة / سهير القحطاني أن ما ذكره البقاعي من أن مقصدها بيان صدق وعد الله وغلبته لكل شيء فيظهر لي أنه بعيد، وليس مقصداً للسورة التي دارت مقاطعها حول الإخلاص من وجوه متعددة وبأساليب مختلفة كالتضاد أو اللزوم أو السبب :

حيث بدأ المقطع الأول من (٣ – ٧) في بيان حال الكفار المضاد للإخلاص .

وفي المقطع الثاني (٨) بيَّن حال الناس في الضراء وهو مضاد للإخلاص .

وفي المقطع الثالث من (١٦ – ٢٦) ذكر صفات المخلصين وصفات ضدهم وجزاء كل منهما .

ويقول الشّيخ محمَّد عبد الهادي : " محور السُّورة وموضوعها الأساسِي : هو الإخلاص لله ، فالإخلاص هو سبيل القبول عند الله ، وسبيل قبول التوبة ، فمَن شكَّ في وجود رياء أو ضعف في الإخلاص ، فليقرأ سُورة الزُّمَر ، فالإخلاص لله في كل العبادات وكلّ الحركات والسَّكنات هو محور السُّورة " (١)

ويذكر صاحب الظلال أنَّ القضية الأصيلة التي تكاد السُّورة تكون وقفاً عليها ؛ والتي نزل الكتاب لتقريرها وتوكيدها قضية توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشِّرك في كلّ صورة من صوره ؛ والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع (٢)

وأنَّ السُّورة " تطوف بالقلب البشري في جولات متعاقبة ، وتوقع على أوتاره إيقاعات مُتلاحِقة ؛ وتهزّه هزَّاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكّنها ،

وفي المقطع الرابع من (٣٢ – ٤٥) ذكر الصدق وهو من لوازم الإخلاص ، وما يضاده سلوكاً وجزاءً .

وفي المقطع الخامس من (٤٦ – ٥٢) ذكر دعوى الإحسان والتقوى عند لحوق العذاب وهو مضاد للإخلاص .

المقطع السادس من (٦٠ – آخر السورة) ذكر جزاء كل من الفريقين المخلص وغيره يوم القيامة وكلا الجزاءين إنما هو بسبب إخلاصهم أو عدمه . ينظر : مقاصد سور القرآن الكريم ــ د / سهير عيسى القحطاني ــ جامعة أبها ــ السعودية .

(١) عون الكريم في بيان مقاصد سور القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الهادي المصري ص ٧٥

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٣٦

وتنفي عنه كلّ شبهة ، وكلّ ظلّ يشوب هذه الحقيقة " [١]

فالسُّورة الكريمة اتَّجهت نحو تحقيق معنى الإخلاص ، وبان ذلك منذ مطلعهـــا ، فعند الآية الثانية منها تجد النص على هذا المعنى عند قوله تعـــالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ ، وفي وسطها تجده أيضًا عند قوله تعـــالى : ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ ، وفي آخرها تجد التحذير مِن عاقبة الإشراك في العبادة ، وأنَّه يحبط العمل ، وذلك في قوله تعالى مخاطبا نبيَّه صـــلى الله عليه وسلم على طريقة الفرض والتقدير : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٣٣

وليس هذا فحسب ، بل إنَّ الناظر بعمق يجد أنَّ أساليب السُّورة كلّها على تنوّعها تلتفت نحو هذا المعنى ، وتحاول تحقيقه ، بدءًا مِن المطلع عند حِجاج هؤلاء الكفار ، حتَّى تصل إلى نهاية السورة الكريمة ، حيث حكاية مشهد سوق المتَّقين إلى الجنَّة ، والكفار إلى النَّار يوم القيامة ، عند قوله سُبحانه : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ

حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . (سورة الزُّمَر : الآيات ٧١ــ٧٥) .

فالنَّظم الكريم أظهر مِن خلال أسلوب التقابل الفارق بين مقام الكفر ومقام التقوى ، أو بين مقام الإخلاص وعدم الإخلاص ، مِن خِلال ذلك الجَزاء الذي أعدَّه الله سُبحانه لكلّ فريق ، وقد كان الجزاء التقابلي أبرز أشكال التقابُل في السُّورة الكريمة ، وقد اعتمدت عليه أيضًا في إبراز مقصودها الرَّئيس ؛ إذ إنَّه أبرز حَال العمل وجزائه المعدّ له منه ــ سبحانه وتعالى ــ في أكشَف ثوب ، وأبين صورة .

هذا ، والمتمعِّن يُدرك أنَّ بعض صور التقابُل في السورة الكريمة يحمل في مضمونه وبين طيَّاته صُورة حِجَاجية هادئة تدحض زعم الكفار في اتخاذهم غير الله وليا ، وعدم إفراده ــ سُبحانه وتعالى ــ بالعبادة ، ففي ذكر عاقبة الكفار مِن خطاب عُقولهم ما لا يَخفى ، وكأنَّه سُبحانه يقول لهم : لو كان الشرك وعدم الإخلاص محمودا لما كان هذا شأنكم ، ولَمَا كان وعيد الله بكم في الدنيا والآخرة على هذا الحَال .

ومِن ثَمَّ فإنَّ الدِّراسة قد ارتضت أن يكون مقصود سورة الزُّمَر الرئيس هو تحقيق معنى الإخلاص ، وسوف يبين ذلك في صورة أكثر وضوحًا عند مُعالجة ما تصْبو إليه هذه الدِّراسة وهو إبراز علاقة الحِجَاج بالإخلاص ، والله الموفق ، وهو ــ سبحانه ــ أعلم بمراد كتابه .

ثانياً : إطْلالة على أسلوب الحِجَاج .

في هذا المطلب أوضح مفهوم الحِجاج في اللغة ، وعند أهل العلم ، وأبيِّن منزلته وقيمته البلاغيَّة ، مستشهدا له من بليغ الكلام ، فأقول وبالله التوفيق :

مدلول الحِجَاج في اللغة :

يدور الحِجَاج في اللغة : حول معاني الجدل ، والتخاصم ، والمنازعة ، وفيه معنى القصد ، ففي اللسان : " الحجة : الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ، وهو رجل محجاج ، أي : جدل ، والتحاج : التخاصم ، وجمع الحجة حجج وحجاج ، وحاجه محاجة وحجاجا نازعه الحجة ، وحجه يحجه حجا غلبه على حجته ، وفي الحديث : فحج آدم موسى ، أي : غلبه بالحجة ، واحتج بالشيء : اتخذه حجة ، قال الأزهري : إنَّما سُمِّيت حُجة ؛ لأنَّها تحج ، أي : تقصد ؛ لأنَّ القصد لها وإليها ، وكذلك محجة الطريق هي المقصد والمسلك ، وفي حديث الدجال : إنْ يخرج وأنا فيكم ، فأنا حجيجه ، أي : محاجه ومغالبه بإظهار الحُجَّة عليه " (١)

فمدلول لفظ الحِجَاج في كتب أهل اللغة ينبئ عن مفهومه في اصطلاح أهل العلم ، ويشير إليه ، ويبرز أنَّ العلاقة بينهما وثيقة .

مفهوم الحِجَاج عند أهل العلم :

يتردَّد ذكر الحِجَاج كثيرا في كتب أهل العلم ، وتتنوع عباراتهم في تحديد مفهومه ، إلا إنَّها في مجموعها لا تخرج عن كونها قطع دعاوى الخصم ، وإفحامه ، وإسكاته بالعقل ، وحمله على التَّسليم والإذعان .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ــ مادة (حجج) ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ د ت ..

فالحِجَاج عند الزَّركشي (ت : ٧٩٤ ه) ــ رحمه الله ــ : الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه [١]

وهو عند ابن حجة (ت : ٨٣٧ ه) ــ رحمه الله ــ : أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام ، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة [٢]

أمَّا الطَّاهر بن عاشور (ت :١٣٩٣ ه ــ ١٩٧٣ م) ــ رحمه الله ــ فيذكر أنَّ: " الحجة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف ، بحيث لا يجد منه تفصياً ، ولذلك يقال للذي غلَب مخالفه بحجته قد حَجَّه ، وأمَّا الاحتجاج فهو إتيان المحتجّ بما يظنّه حجَّة ، ولو مغالطة ، يقال : احتج ، ويقال : حَاجَّ ، إذا أتى بما يظنُّه حجَّة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ (البقرة : ٢٥٨) ، فالحجَّة لا تطلق حقيقة إلاّ على البرهان والدَّليل النَّاهض المُبكِت للمخالف ، وأمَّا إطلاقها على الشبهة فمجاز ؛ لأنها تُورَد في صورة الحجة " [٣]

ويقول في موضع آخر من التحرير والتنوير : المجادلة : الاحتجاج لتصويب رأي

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ــ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ٣ / ٤٦٨ ــ ط : دار المعرفة ــ بيروت ــ ١٣٩١ ه .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ــ تح : عصام شعيتو ــ ١ / ٣٦٤ ــ ط : دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .

(٣) التحرير والتنوير للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور ــ ٢ / ٤٦ ــ ط : دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس ــ ١٩٩٧ م .

وإبطال ما يخالفه أو عمل كذلك [١]

ويقول في موضع آخر : التحاجّ : الاحتجاج من جانبين فأكثرَ ، أي : إقامة كل فريق حجته وهو يقتضي وقوع خلاف بين المتحاجّين ؛ إذ الحجة تأييد لدعوى لدفع الشكّ في صحتها [٢]

وللحجاج قيمة بلاغية كبيرة جعلت ابن الأثير ــ رحمه الله ــ يجعل مدار علم البلاغة على استدراج الخصم ، فقال في صدر حديثه عن الاستدراج : " بل الغرض ذكر ما تضمَّنه مِن النُّكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم ، وإذا حُقِّق النَّظر فيه علم أنَّ مدار البلاغة كلّها عليه ؛ لأنَّه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مُستَجلِبة لبلوغ غرَض المخاطَب بها.. " [٣]

فللحِجَاج غاية يتغياها البليغ في كلامه ، حيث إنَّه " مِن أرفع العلوم قدرا ، وأعظمها شأنا ؛ لأنَّه السبيل إلى معرفة الاستدلال ، وتمييز الحقّ من المحال ، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لَما قامت حجة ، ولا اتَّضحت محجة ، ولا علم الصحيح من السقيم ، ولا المعوج من المستقيم " [٤]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٢٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٤ / ١٦٠

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ٢ / ٦٤ ــ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٩٥ م .

(٤) المنهاج في ترتيب الحجاج ــ أبو الوليد الباجي ص ٨ .

بل إنَّ الجاحظ ــ رحمه الله ــ جعل غاية بيان البليغ ، فيما أسمَاهُ هو الفهم والإفهام ، فتراه يجعل " مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائل والسّامع ، إنَّما هو الفَهْمُ والإفهام ؛ فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ ، وأوضَحْتَ عن المعنى ، فذلك هو البيانُ" (١)

ويقول ــ مُبْرزا فضل القُدرة على الإقناع ــ : " إنَّك إنْ أُوتيتَ تَقريرَ حُجّة اللَّه في عقول المكَلَّفِين ، وتخفيفَ المَؤُونة على المستمعين ، وتزيينَ تلك المعاني في قلوب المريدينَ ، بالألفاظِ المستحسَنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبةً في سُرعة استجابتهم ، ونَفْيِ الشّواغلِ عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ،على الكِتاب والسّنّة ، كنْتَ قد أُوتِيتَ فَصلَ الخِطاب ، واستوجبتَ على اللَّه جزيلَ الثّواب " (٢) وهلْ بعد فَصْل الخِطاب عَطاء ؟! أم هل بعده لُمبِين رجاء ؟!

هذا ، والحِجَاج ممتدّ الجذور في الكلام الفصِيح ، وعلى رأسه القرآن الكريم ، والبيان النبويّ الشريف .

فممَّا هو معلوم في هذا الباب قوله جلَّ شأنُه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ

(١) البيان والتبيين للجاحظ ــ تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون ١ / ٧٦ ــ ط : مطبعة المدني ــ القاهرة ــ صف الكتاب بطريقة الجمع التصويري : مكتبة الخانجي ــ ط : سابعة ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٨ م .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١١٤ .

أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (سورة يسن : الآيات : ٧٨ : ٨١) .

يقول أبو هلال العسكري : " فهذه دلالة واضحة على أنَّ الله تعالى قادر على إعادة الخلق ، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها ؛ لأنَّ الإعادة ليست بأصعب في العقول مِن الابتداء ، ثمَّ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ ، فزادها شرحاً وقوة ؛ لأنّ مَن يخرج النار مِن أجزاء الملك ، وهما ضدان ، ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه ، ثمَّ قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ فقوّاها أيضاً ، وزاد في شرحها ، وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد ؛ لأنَّ إعادة الخلق ليست بأصعب في العقول من خلق السموات والأرض ابتداء " (١)

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري . تح : علي محمد البجاوي ــ و/ محمد أبو الفضل إبــراهيم ــ

ومنه كذلك في البيان النبوي المتفق عليه : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ قَالَ : هَلْ لَك مِنْ إِبِلٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : فَمَا أَلْوَانُهَا ؟ قَالَ : حُمْرٌ قَالَ : هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : فَأَنَّى ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ ، قَالَ : فَلَعَلَّ ابْنَك هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ " (١)

فتأمَّل حجاجه ــ صلَّى الله عليه وسلم ــ تجده في أبلغ صور الإقناع ، حيث آثر طريق القياس ، ولعلَّ هذا ما جعل الرجل يدرك الأمر بنفسه ، ويصل للمقصود من حوار النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بذاته ، فما كان من الرجل إلا التسليم والرضا بجوابه صلَّى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم ...

****

ص ١٨ ــ ط : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .

(١) صحيح البخاري : (الجامع الصحيح المختصر) ــ تح : د مصطفى ديب البغا ــ ٦ / ٢٦٦٧ ــ ط : دار ابن كثير ــ بيروت ــ ط : ثالثة ــ ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م .

ثالثًا : تفاعل معنى الإخلاص مع الحِجَاج في سورة الزُّمَر .

الناظر في سور القرآن الكريم سورة سُورة يعرف أنَّها تتألَّف مِن أساليب متنوعة ، هذه الأساليب على تنوُّعها تتفاعل مع مقصود السُّورة أيَّما تفاعل ، حيث إنَّ الأساليب المختلفة التي يتكوَّن منها بنيان السُّورة الكريمة تنظر ــ ولا تحيد أبدا ــ إلى المعنى الذي اعتمدته السورة مقصودا رئيسا لها ، فيكون لتلك الأساليب مع كل مقصود أو معنى من معاني السورة الكريمة خصوصية ، وهذا يعني ــ ويجب أن نتنبه إليه ــ أنَّ أُسلوب الحِجَاج مثلا في سورة الزُّمَر يختلف عنه في سورة أخرى من سور القرآن الكريم ، وأنَّ آليات الحِجَاج التي يعتمد عليها النظم الكريم في سورة الزُّمَر تختلف عن آليات الحِجَاج في سورة أخرى ؛ وذلك لأنَّ لكلّ سُورة قضية خاصَّة ، ومعنى مقصودا تعالجه قصصها ، وسائر مقاطعها .

فالسُّورة القرآنية على تنوُّع مضمونها ، وما تعالجه مِن معانٍ وقضايا مختلفة ، يبدو ــ عند التأمُّل الواعي ــ التناسب والتفاعل بين الأساليب والمقاصد واضحا جليا وضوح الشَّمس ، وهذا أمر لا يحتاج إلى برهان أو دليل ؛ لأنَّه مقرَّر معلوم لكل ذي عينين ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (سورة النساء : ٨٢) .

وابتداء يجدر التأكيد على أنَّ الغرض المنشود من تنزيل السُّورة الكريمة حكاه النَّظم الكريم بطريقة مباشرة مرتين ، مرة عند قوله تعالى في المطلع : ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ

مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ ومرة عند قوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ .

وقد جاء خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بالإخلاص في العبادة له سبحانه ، وكان الغرض منه الثبات والدوام ، وما ذاك إلا لبالغ أهميته ، وخطورة نقيضه ؛ إذ إنَّ الإخلاص أساس لقبول الأعمال ، وشرط صحة لها .

هذا ، وفي أمره صلى الله عليه وسلم بالإخلاص في العبادة " تنبيه إلى كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة " [١] له في اتباع المأمورات التي من جملتها إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى .

وفي تأكيد الأمر على الإخلاص مزيد عناية واهتمام بشأنه ، وكأنَّ النَّظم الكريم

(١) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهَرَرِيّ ٢٤ / ٤٧٥ ــ ط : دار طوق النجاة ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ ه ــ ٢٠٠١ م .

يخاطب هؤلاء المُشركين قائلا : " انتبهوا مِن غفلتكم أيها العباد ، واعلموا أنَّه لله سُبحانه لا لغيره ، الدين الخالص مِن شوائب الشِّرك ، والعبادة الخالصة مِن شوائب الرِّياء ، لا شركة لأحد معه فيها ؛ لأنَّ كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة مالكه " (١)

ثمَّ راح النَّظم الكريم يتحدَّث عن حال هؤلاء الذين حادوا عن الطريق المستقيم مُبينا عقيدتهم وطريقة تفكيرهم ، وهي اتخاذ الأنداد ، موضِّحا أنَّ ذلك هو ما سيطر على عقولهم ، وكان سببا في إضلالهم ، فتراه ــ جلَّ شأنه ــ يقول عن هؤلاء : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ، وفي ظنِّي أنَّ هذه الآية تمثل جذرا لعدد مِن الآيات تفرَّقت في ثنايا السُّورة .

فقوله تعالى مثلا ، وهو يحكي حال الإنسان في السَّراء والضَّراء ، وما فيه من التناقض : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ

(١) حدائق الروح والريحان للهرري ٢٤ / ٤٧٨

أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾

يوضح خور هذه الأنداد التي جعلها هؤلاء شركاء من دون الله ؛ إذ لو كانت آلهة ــ كما يزعمون ــ لاستنصروا بها حين يمسُّهم الضرّ .

وقوله تعالى وقد وصفهم بالخسران : ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ أساسه وسببه الأوحد اتخاذ غير الله وليًّا .

ثمَّ إنَّ قوله سبحانه وتعالى في منتصف السُّورة الكريمة : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وما فيه من

التفصيل والبسط ينظر بعين جاحظة إلى ما اعتبرناه جذرا مهمًّا تحاول الآيات تجليته للناظر في صور أكشف وأوضح ، ابتداء بوصف الشُّفعاء والشُّركاء بالعجز وعدم القدرة ، وهي أولى الصفات التي تتنافي مع معاني الألوهية الحقَّة .

ثمَّ التأكيد ثانية على حال هذا الإنسان في السَّراء والضَّراء ، وأنَّه لعجز هؤلاء الأنداد التي يعبدها مِن دون الله سُبحانه وتعالى لا يجد أمامه إلا الله كاشفا لضرّه ، ملبِّيا لحاجته .

ثمَّ التذكير بحال مَن سبقهم ممَّن سلك مثل طريقهم بأنْ اتَّخذ دون الله شفيعا وشريكا، ولم يُخلص في إفراد ربّه وخالقه بالعبادة الواجبة ، وتأمَّل كيف أنَّ النَّظم الكريم وصفهم بالظلم ، وذكر أنَّ عقاب الله حل عليهم في العاجل ، وينتظرهم في الآخرة عقاب أليم .

هذا ، وقد بدا تفاعل(الإخلاص) مقصود السُّورة الرَّئيس مع أسلوب الحِجَاج في السُّورة الكريمة ، حيث إنَّ الآيات التي اتخذت مِن حِجَاج الكفار وإقناعهم بأنَّ الإله الذي يستحق العبادة يجب أن يتصف بصفات الإلهية الحقة سبيلا مع غيرها في تقرير معنى الإخلاص من مثل قوله سبحانه : ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ

تَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ؛ ذلك لأنَّ الحِجاج هُنا قد ارتكز على تنزيه المولى ــ سُبحانه وتعالى ــ عن الولد ، والاستدلال على وحدانية الله ، وإبراز كمال قدرته سُبحانه ، وهل هناك أدلّ على عظمة قدرته سُبحانه مِن هذه الشَّواهد الكونيَّة : (خلق السموات والأرض ، تكوير الليل على النهار ، تكوير النهار على الليل ، تسخير الشمس والقمر ، خلق الإنسان ، خلق الحيوان مِن الإبل والبقر والضأن والمعز) ، فهذا كلّه يستلزم وجوب الإخلاص له سبحانه في العبادة وإبطال عبادة غيره ؛ لأنَّ " مَن تأمَّل في عجائب أحوال السَّموات والأرض ، وفي عجائب أحوال

النبات والحيوان خاصَّة ، وفي عجائب بدن الإنسان ، وما فيه مِن أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة ، علم أنَّه لا بدَّ مِن الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم"(١)

ومثله أيضًا قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ والحِجاج في الآية الكريمة هنا لم يكتفِ ببيان كمال قدرة الله سُبحانه وتعالى ، بل اشتمل كذلك على ما يوجب إبطال عبادة الغير ، وهذا ما رأيتُه عند قوله سُبحانه : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

(١) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٨٢ ــ ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ــ لبنان ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

فقد أثبت عن طريق الحِجَاج العقلي " أنَّ هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً، وهو المراد مِن قوله : ﴿ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾"(١)

ومثله أيضًا في الاستدلال والحِجَاج على كمال قدرته سبحانه ، وإبراز أنَّه ــ سبحانه ــ متَّصف بصفات الإلهية التي تستحق العبادة ؛ لأنَّ حكاية توفّي الأنفس عند نومها وإحيائها عند إيقاظها لا يكون لغير إله عظيم ، هو للعبادة أهل ، قوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ ؛ ذلك لأنَّ " الواجب على العاقل أن يعبد إلهاً موصوفاً بهذه القدرة ، وبهذه الحكمة ، وأن لا يعبد الأوثان التي هي جمادات لا شعور لها ولا

(١) السابق ٢٦ / ٢٨٢ .

إدراك " [١]

فآيات الحِجَاج والإقناع في السُّورة الكريمة تلاقت مع غيرها في تقرير معنى وجوب الإخلاص له سبحانه ، ووجوب إفراده بالعبادة ، وإبطال عبادة غيره .

فالحِجَاج في سورة الزُّمَر ــ كما سنعرض له مفصلا في موضعه من البحث ــ وسيلة بيانية اعتمد عليها النظم الكريم في تقرير معنى الإخلاص ، لأنَّ الحِجَاج في حقيقته خطاب للعقل لا للقلب ، وهو ملمح أسلوبي بيِّن في سُورة الزُّمَر ، وقد وظفه النظم الكريم أحسن توظيف في خدمة مقصد السُّورة الكريمة وهدفها .

وإذا تأمَّلتَ معي أوصاف الذَّات العليَّة في السُّورة الكريمة بأناة ورَيْث عرفت أنَّها أوصاف إله عظيم يستحق أن يُفرد وحدَه بالعبادة ، ويخلص له دون ما سواه ، فهي أوصاف خاصَّة وخالصة لواحد ، لا يشبهه غيره أبدا ، ومن ذلك وصف العزة والحكمة في قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

وكذا ما في قوله : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا

(١) تفسير الرازي ٢٦ / ٢٨٤ / ٢٨٥

هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾

وقولـــــــــه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾

وقولـــه : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

وقولـــه : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾

وقولـــه : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴾

وقوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وقولـــه : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ وغيرها .

فموضوعات السُّورة الكريمة على تنوُّع معانيها ، وتعدُّد أساليبها ، قد تلاقت علـــي شيء وحيد هو وجوب تحقيق معنى إخلاص العبادة لله الواحد الأحـــد ، ووجـــوب الإقرار بوحدانيته سُبحانه ، فلا يُعبد غيره ، ولا يُرجى سواه ، ولا يكون الخُضـــوع ولا الإقرار بصفات الجلال والجمال إلا له ، سُبحانه وتعالى عمَّا يقـــول الكـــافرون والظالمون عُلُوا كبيرا ، وهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، وســـر مـــن أسرار كتابه .

رحم الله شيخنا الدكتور : محمد عبد الله دراز ، القائل : " الأعجب أنَّـــه مـــع كونه أكثر الكلام افتنانا وتنويعا في الموضوعات ، هو أكثـــره افتنانـــا وتلوينًـــا في الأسلوب في الموضوع الواحد ، فهو لا يستمر طويلًا على نمط واحد من التعـــبير ، كما أنَّه لا يستمر طويلًا على هدف واحد من المعاني ، ألا تراه كما يتنقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى يتنقل في المعنى الواحد بين إنشـــاء وإخبـــار ، وإظهـــار وإضمار ، واسمية وفعلية ، ومضي وحضور واستقبال ، وتكلم وغيبية وخطاب ؛ إلى غير ذلك مِن طرق الأداء ، على نحو من السرعة ، لا عهد لك بمثله ، ولا بما يقرب منه في كلام غيره قطّ ، ومع هذه التحوُّلات السريعة المستمرة الـــتي هـــي مظنـــة الاختلاج والاضطراب ، بل مظنة الكبوة والعثار ، في داخل الموضوع أو في الخروج منه ، تراه لا يضطرب ولا يتعثر ، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانـــة الـــنظم

وجود السبك حتى يصوغ من هذه الأفانين الكثيرة منظرًا مؤتلفًا ، فأيُّ امرئ حسن العربية ، وينظر في نظم القرآن هذه النظرة ، ثمَّ لا يرى فيه مِن أثر القدرة البـــاهرة سرًّا مِن أسرار التحدِّي والإعجاز ؟ ! " (١)

ويقول الرَّافعي ــ رحمه الله ــ " .. وبالجُملة ، فإنَّ هذا الإعجاز في معاني القـــرآن وارتباطها أمر لا ريب فيه ، وهو أبلغ في معناه ، إذا انتبهت إلى أنَّ السورة لم تـــترل على هذا الترتيب ، فكان الأحْرى أنْ لا تلتئم ، وأنْ لا يناسب بعضها بعضًا ، وأنْ تذهب آياتها في الخلاف كلّ مذهب ، ولكنَّه رُوح مِن أمر الله : تفرق معجزًا ، فلمَّا اجتمع اجتمَع له إعجاز آخر ليتذكر به أولو الألباب " (٢)

فسُبحان مَن أنزله محكم البناء ، مترابط المعاني ، لا منتهى لعجائبه ولا لأسراره على مر العصور والدهور .

****

(١) النبأ العظيم ــ نظرات جديدة في القرآن الكريم ــ د / محمـــد عبـــد الله دراز ص ١٤٤ ــ ط : دار الثقافة ــ قطر ــ ١٤٠٥ هـــ ــ ١٩٨٥ م .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ مصطفى صادق الرافعي ص ١٦٨ بالهـــامش ــ ط : دار الكتـــاب العربي ــ بيروت ــ ١٤٢٥ هـــ ــ ٢٠٠٥ م .

مدخل

الحِجَاج القرآني وأثره في تحقيق معنى الإخلاص .

تتغيَّا الدِّراسة في هذا المبحث الوقوف على أساليب الحِجَاج القرآني في السُّورة الكريمة ، وإبراز مدى علاقتها بالإخلاص مقصود السُّورة الكريمة ، ذلك لأنَّ كلّ أسلوب من أساليب الحِجَاج يمثل علاقة خاصة بالإخلاص ، ولا شك أنَّه يتفاعل معها ، وهذا يترجم خصوصية كلّ أسلوب في موطنه مِن السُّورة الكريمة .

فالمُتأمل لسورة الزُّمَر يجد أنَّها اعتمدت على عدّة أساليب بعينها ، وآثرتها دون غيرها من آليات الحِجَاج ، ومِن هنا كانت هذه الدراسة لتجيب عن عدة أسئلة تدور في عقل الباحث وهي : (ما أثر الإخلاص في أسلوب الحِجَاج في سورة الزُّمَر ؟ وما خصوصية أسلوب الحِجَاج عندئذٍ ؟ ولم اعتمدت السُّورة الكريمة آليات حجاجية بعينها ، كطريق الفرض والتقدير ، وضرب المثل ، والاستدلال ؟ ، وهذه الأسئلة على وجازتها تحتاج إلى جهد منِّي ، ومعونة مِن الله ولي التوفيق وحده ، فأسأله سُبحانه التوفيق ، والعصمة مِن الزلل ، إنَّه ولي ذلك ، والقادر عليه .

فمِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ أساليب الحِجَاج في سورة الزُّمر تشكل عنصرا رئيسا من عناصر تحقيق معنى الإخلاص ؛ ذلك لأنَّ أساليب الحِجَاج تخاطب في المقام الأول العقل لا القلب ، فهي تنشد هنا إقناع المُخاطَب المُعاند في إثبات وحدانية الله سُبحانه وتعالَى ، والمعتقِد على سبيل الضَّلال بعبادة غير الله ، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

ولذا فهي الأنسب ــ من بين غيرها مِن الأساليب البيانية التي اتَّكأت عليها السُّورة

الكريمة ــ لحال هذا المُخاطَب ، فهو أعمى البصيرة ، قد جُبل على العِناد والمُكابرة ، فلا يعود إلى الرُّشد والصواب إلا ببيان دامغ ، وحجة ناصعة رصينة ، تقرع عقله وقلبه .

هذا ، وقد أفرد النَّظم الكريم لأساليب الحِجَاج حيِّزا كبيرا في سُورة الزُّمَر ، حيث امتدت في النسيج المكوّن لبنائها بصورة ملحوظة ، وقد تنوَّعت تنوُّعا يُترجم كونها آلية هامَّة تفي بغرض النَّظم ومقصوده في هذا المقام .

هذا ، وقد شكلت آليات الحِجَاج في السورة الكريمة مطالب هــذا المبحــث ، وذلك على النحو الآتي :

المبحث الأول : بلاغة أسلوب الفرض والتقدير في تحقيق معنى الإخلاص .

المبحث الثاني : بلاغة ضرب المثل في تحقيق معنى الإخلاص .

المبحث الثالث : بلاغة الاستدلال في تحقيق معنى الإخلاص .

****

هذا ، ويمكن حصر الآيات الكريمة التي وظفها النظم الكريم لحِجَــاج الكفــار في السُّورة الكريمة في هذه المواضع الآتية :

الأول : ما عرض له النَّظم الكريم في ثلاث آيات متتاليات في صدر السورة الكريمة عن طريق إيثار طريق الفرض والتقدير في إثبات وحدانيته سبحانه ، وما استلزم عنه من الحديث عن بيان دلائل قدرة الله التي تستوجب إفراده سبحانه وتعــالى وحــده بالعبــادة ، وذلــك في قولــه ســبحانه : ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا

لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (١)

الثاني : عند قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

(١) سورة الزمر : الآيات من 4 : 6

مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦٓ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١)

الثالث : عند قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

الرابع : ما حكاه النظم الكريم ــ في سياق الاستدلال على قدرة الخالق سبحانه وتعالى ــ عن قبض أرواح الخلق عند الموت أو النوم وإرسال تلك الأرواح التي لها أجل قدَّره سُبحانه في علمه الذي لا يعلمه أحد سواه ، وذلك عند قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟

(١) سورة الزمر : ٣٨

(٢) سورة الزمر : آية ٢٨

مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (١)

الخامس: عند قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (٢)

فهذه المواضع مِن السُّورة الكريمة هي مدار البحث وعماده وسيكون درسها ــ إنْ شاء الله تعالى ــ في ضوء تحليل بلاغي يبرز سُموّ البيان القُرآنيّ ، ومدى ما يكمُــن

(١) سورة الزمر : الآيات من ٤٢ ــ ٤٤

(٢) سورة الزمر : الآيات من ٦٢ ــ ٦٦

فيه مِن إقناع يصحبه إمتاع يترك النَّفس عاجبة ، مَشْدُوهة بسحره وروعته ، ناطقة متيقنة بأنَّه تنزيل مِن حكيم حميد .

****

المبحث الأول :

بلاغة أسلوب الفرض والتقدير في تحقيق معنى الإخلاص .

لَمَّا كان أسلوب الفرض والتقدير أقرب الأساليب إلى تحقيق معنى الإخلاص وتأكيده ، وذلك لِما فيه من دلالة التأبيد المُطلق ، وجدتُ النَّظم الكريم في سُورة الزُّمَر يتكئ عليه في إبطال أقبح المُعتقدات الباطلة وأعقدها عند هؤلاء الكفار ، وذلك في موضعين من السُّورة الكريمة .

الأول : خصَّه النَّظم الكريم لإبطال اتخاذ البنوة ، وإثبات الوحدانية له سبحانه وتعالى ، عند قوله ــ عزَّ اسمه ــ في صدر السُّورة الكريمة : ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ

فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ (١)

والآخر : خصَّه النَّظم الكريم لإثبات خور آلهة الكفار وضعفها ، وبيان قدرة المعبود بحق ، وهو الله ــ سبحانه وتعالى ــ وذلك عند قوله ــ عزَّ اسمه ــ : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢)

وقد تولَّد تحقيق معنى الإخلاص وتأكيده مِن أسلوب الفرض والتقدير ، مِن خلال ما يكمُن في هذا الطَّريق البَيانيّ خاصَّة مِن خِطاب عقلي مَحْض ، يَنْفُذُ إلى العقل بلا استئذان ، فهو في ظنِّي أوفق الطُّرق للتسليم ، وأقربها للإقناع .

****

(١) سورة الزمر : الآيات : ٤ ــ ٦

(٢) سورة الزمر : ٣٨

يجب التأكيد ابتداء على أنَّ أساليب الحِجَاج في السُّورة الكريمة قامت لتدحض زعم الكفار الذي حكاه القرآن الكريم عنهم في صدر السُّورة الكريمة عند قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (١) وهذا يدلُّ على أنَّ هدف السُّورة واضح وبيِّن ومحدَّد في تركيز شديد ، منذ المطلع ، وهو شيء يشي لا محالة بسموّ بيان الكتاب العزيز على كلّ بيان .

فهذه الآية تعتبر جِذرا رئيسا التفتتْ السُّورة الكريمة بكلّ ألفاظها ومعانيها وأساليبها إليها وظلت جاحظة إليها حتَّى الختام .

فهؤلاء الكفار ــ لعنهم الله ــ " كانوا يعلنون أنَّ الله خالقهم وخالق السموات والأرض ، ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك ، إنَّما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه ، ثمَّ يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها ، ثمَّ يزعمون أنَّ عبادتهم لتماثيل الملائكة ، وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ليست عبادة لها في ذاتها ؛ إنَّما هي زلفى وقربى لله ، كي تشفع لهم عنده ، وتقربهم منه ! " (٢)

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٣

الأولياء عبارة عن كل معبود باطل كالملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام . ينظر : تفسير الألوسي ٢٣ / ٢٣٥ .

(٢) في ظلال القرآن ١ / ٣٠٣٧

فأوَّل صورة يتجلَّى فيها الحِجَاج العقلي في سُورة الزُّمَر ما عرض له النَّظم الكريم في ثلاث آيات متتاليات في صدر السُّورة الكريمة عن طريق إيثار طريق الفرض والتقدير في إثبات وحدانيته سبحانه ، وتنزيهه عن اتخاذ الولد كما يزعم هؤلاء الكفار ، وذلك عند قوله سبحانه : ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾

ومضمون الحجاج في الآية الكريمة على النحو الذي فصَّله الرازيّ ــ رحمه الله ــ تفصيلا عقليا عند قوله : " والمراد مِن هذا الكلام : إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد ، وبيانه من وجوه :

الأول : أنَّه لو اتخذ ولداً لما رضي إلا بأكمل الأولاد ، وهو الابن ، فكيف نسبتم إليه البنت ؟

الثاني : أنَّه ــ سُبحانه ــ واحد حقيقي ، والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد .

أمَّا أنَّه واحد حقيقي ، فلأنَّه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد مِن أجزائه ، وجزؤه غيره ، فكان يحتاج إلى غيره ، والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته .

وإمَّا أنَّ الواحد لا يكون له ولد فلوجوه :

الأول : أنَّ الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد ، وهذا إنَّما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء ، والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه .

الثاني : شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد ، فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، وذلك محال ؛ لأنَّ تعيين كلّ واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد ، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوماً بسبب منفصل ، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته . فثبت أنَّ كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته ، وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له ، فثبت أنَّ كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد .

الثالث : أنَّ الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة ، والزوجان لا بدَّ وأن يكونا مِن جنس واحد ، فلو كان له ولد لَما كان واحداً ، بل كانت زوجته مِن جنسه .

وأمَّا أنَّ كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له ، فلأنَّ المحتاج إلى الولد هو الذي يموت، فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه ، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهوراً بالموت .

أمَّا الذي يكون قاهراً ، ولا يقهره غيره ، كان الولد في حقّه مُحالاً ، فثبت أنَّ قوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى " [1]

والمعنى كما ذكر الزَّمخشري : لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصحّ ، لكونه محالاً ؛ ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ، ويختصهم ويقربهم ، كما يختص الرجل ولده ويقربه . وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به ، وغرَّكم اختصاصه إياهم ،

(١) تفسير الرازي ٢٦ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

فزعمتم أنَّهم أولاده ، جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض ، كأنَّه قال : لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل ، مِن اصطفاء ما يشاء مِن خلقه ، وهم الملائكة ، إلا أنَّكم ــ لجهلكم به ــ حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً ، ثمَّ تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات ، فكنتم كذَّابين كفارين مُبالغين في الافتراء على الله وملائكته ، غالين في الكُفر (١)

وترى النَّظم الكريم هنا قد آثر طريق الفرض والتقدير (التمثيل) لغرض المبالغة في تصوير سُوء هذا الاعتقاد ، وليبين لهؤلاء الكُفَّار خطأ اعتقادهم الفادح الذي لا يقوله مَن له أدنى فهم وبصيرة ، وترى الأسلوب يحمل كذلك في ثناياه معاني الإنكار والزَّجر والتقريع ؛ ذلك لأنَّ دعواهم كاذبة باهتة ، وحجتهم داحضة ، وهي أوهى مِن بيت العنكبوت .

يقول الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله ــ : " وإذ قد عرفتَ ذلك فإنَّه لا يقرر بالمُحال ، وبما لا يقولُ أحدٌ إنه يكونُ إلاّ على سبيلِ التمثيل ، وعلى أن يقالَ له إنَّك في دعواك ما ادَّعيتَ بمنزلةِ مَن يدَّعي هذا المُحال ، وإنك في طَمَعِك في الذي طَمِعْتَ فيه بمنزلةِ مَن يطمعُ في الممتنع " (٢)

ومن ثمَّ تجد النَّظم الكريم في هذه الآيات قد خاطب هؤلاء الكفار بالماضي : (لو

(١) ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ــ تح : عبد الرزاق المهدي ٤ / ١١٢ ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ١٤٠٧ ه .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ تح : د / التنجي ــ ص ١٠٥ ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥ م .

أراد ــ لاصطفى ــ خلق السموات ــ سخر الشمس ــ خلقكم ــ جعل ــ أنزل) المُشعِر بالإبعاد والنَّقص ، على خلاف مقام الحُضُور المُشعِر بالتقريب والتكريم .

هذا ، ومِن جَميل التعبير هنا في قوله : ﴿مِمَّا تَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أنَّ النَّظم الكريم قد " عبر بالأداة التي أكثر استعمالها فيما لا يعقل ، إشارة إلى أنَّه قادر على جعل أقلّ الأشياء أجلّها على سبيل التكرار والاستمرار ، كما أشار إليه التعبير بالمضارع فقال : (ما يشاء) أي : ممَّا يقوم مقام الولد ، فإنَّه لا يحتاج إلى التطوير في إتيان الولد إلا مَن لا يقدر على الإبداع بغير ذلك " [(١)] فانظر كيف تساوقت الألفاظ مع مقام الحِجاج ، وتأمَّل ما حملتْه أيضًا مِن الاستدلال على قُدرة الله سبحانه وتعالى ، وكأنَّ هذه الآية مقدّمة لما بعدها . فـ " البنية الشكلية للحجاج تقوم على تعالق النتائج والمقدمات ، وتسلسل القرائن ، ودقة ترابطها ، بحيث تكون الأولى مؤدية إلى الثانية ، واللاحقة مبررة للسابقة ، بشكل يبقي على طابعها الاستفهامي القابل لإعادة المساءلة " [(٢)]

هذا ، وقد استلزم إبطال بنوة الولد له سبحانه ، وإثبات وحدانيته ــ من خلال أسلوب الفرض والتقدير الأسلوب الرئيس في هذا المقام وما سواه فرع عنه ــ

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٦ / ٤٥٠

(٢) الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة ــ أمينة الدهري ــ ص ٩ ــ ط : شركة النشر والتوزيع للمدارس ــ الدار البيضاء ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .

الحديث عن بيان دلائل قدرة الله التي تستوجب إفراده سُبحانه وتعالى وحده بالعبادة من خلال طريق الاستدلال الذي يخاطب العقل أيضا لكنه جاء في ثوب أكثر تفصيلا وبيانا ، وكأنه يحاول أن يجتث هذا المعتقد الفاسد من جذوره الرَّاسخة في عقول وأفكار هؤلاء الكفار المُعاندين ، فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ .

فالحديث هنا عن قدرة الله تعالى في خلق الظواهر الكونية حجاج عقلي ، طريقه الاستدلال على بالغ قدرته التي لا تكون إلا لإله عظيم يستحق وحده الإخلاص له في العبادة ، وكأنَّ النظم الكريم يخاطب هؤلاء قائلا : مَن كان شأنه خلق السموات والأرض ، وتكوير الليل والنهار ، وجري الليل والنهار على نظام بديع إلي يوم القيامة ، وتسخير الشمس والقمر وجريهما لإدراك أجل مسمى يعلمه الله ، ثمَّ

الحديث عن كيفية خلق الإنسان ، وأنَّه خُلق من نفس آدم عليه السَّلام ، واستطرد في تبيان خلق حواء من نفس آدم عليهما السلام ، ثمَّ الحديث عن إنعامه على الإنسان بإنزال الأنعام مِن الإبل والبقر والضَّأن والمعز ، والانتهاء بشيء من التفصيل في إبراز مراحل خلق الجنين الأولى في بطن الأم ، فكل هذا لا يكون إلا مِن إله يتَّصف بأوصاف الجلال التي توجب العبوديَّة التامة .

هذا ، وتبدو عظمة الحِجاج هنا في إيثار شواهد دالَّة على عظيم قدرته ، هذه الشَّواهد شاخصة أمام أعينهم يراها مَن يُبصر بعين واحدة حولاء .

والمُتأمِّل هنا يجد أنَّ الحجاج لم يكن تصاعديا ، بل بدأ بالحجة الأقوى ، وهي خلق السموات والأرض وما لزم عنها ، ثمَّ ثنَّى بخلق الإنسان ، ولعلَّ هذا هو الأنسب بحال من يقع موقع المُحَاجّ ، فكأنَّ النَّظم الكريم ــ وهو يستدلّ على قُدرة الخالق سُبحانه ــ أراد أنْ يقصم حجتهم في بادئ الأمر ، وأن يظهر خورها ، فحاجّهم بما لا يُنكر ، وبما يكون التسليم فيه حاصلا ، والإقرار به حاضرا .

يقول الزمخشريُّ ــ رحمه الله ــ عند قوله جلَّ شأنه : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة غافر : آية ٥٧)

" فحجوا بخلق السَّموات والأرض ؛ لأنَّهم كانوا مقرّين بأنَّ الله خالقها ، وبأنَّها خلق عظيم لا يقادر قدره ، وخَلْق النَّاس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمَن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ، وهو أبلغ من

الاستشهاد بخلق مثله " (١)

وعند تحليل بِنية الحجاج نجد دقة النَّظم الكريم في اختيار الألفاظ والأساليب التي شكَّلت صورة الحِجاج .

ففي قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾ تجد أنَّ اختيار التعبير بالماضي فيه إشارة إلى تحقُّق وكينونة ما استدلّ به الخالق على عظيم قدرته ؛ لأنَّه سُبحانه وتعالى يذكرهم بالحاصل الواقع الذي يعرفونه ، وفي حكاية التكوير في قوله : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ ﴾ آثر النَّظم الكريم التعبير بالمضارع ؛ لأنَّ عظمة القدرة تظهر في تجدُّد حصول الليل عقب النهار ، وحدوث النهار عقب الليل ، وهو المسمَّى بالتكوير ، كما أنَّه الأنسب بحال تلك الظاهرة الكونية ، وفي إيثار مادة التكوير دون غيرها تناسُب مع سياق السُّورة الكريمة .

يقول الطاهر بن عاشور : " لَمَّا كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحقِّ بإنشاء السَّماوات والأرض اختير للاستدلال على ما يَتبع ذلك الإنشاء من

(١) الكشاف ٤ / ١٧٥ .

خلق العَرضين العظيمين للأرض مادةُ التكوير دون غيرها من نحو الغشيان الذي عبر به في قوله تعالى : ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ في سورة (الأعراف : ٥٤) ؛ لأن تلك الآية مسوقة للدلالة على سعة التصرُّف في المخلوقات ؛ لأنَّ أولها { إن ربكم اللَّه الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش } فكان تصوير ذلك بإغشاء الليل والنهار خاصة ؛ لأنه دلّ على قوة التمكُّن من تغييره أعراض مخلوقاته ، ولذلك اقتصر على تغيير أعظم عَرَض وهو النور بتسليط الظلمة عليه " (١)

وفي اختيار التعبير بقوله : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ ﴾ الغرض منه تشبيه " هيئة غشيان الليل على النهار في جزء مِن سطح الأرض ، وعكسُ ذلك على التعاقب ، بهيئة كَوْر العمامة ، إذ تغشى الليلة الليلة التي قبلها ، وهو تمثيل بديع قابل للتجزئة ، بأنْ تُشبَّه الأرض بالرأس ، ويُشبَّه تعاور الليل والنهار عليها بلفّ طيَّات العمامة " (٢)

ففي اختيار لفظة التكوير خاصَّة والذي ينصرف ذهن السَّامع ابتداء إلى هيئة كور عمامة الرأس تقريب للمعنى وتوضيحه ، فاختيار هذا التمثيل وما فيه من تقريب المعنى وتوضيحه لتلك العقول الجاحدة يتطلبه مقام الحجاج والإقناع ، إذ التمثيل

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٣٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ٣٢٨

أحد آليات الحجاج ووسائله ، إذ كيف يصير الإقناع بما لا تفهمه العقول والأذهان؟

ويأتي الحديث كذلك عن تذليل الشَّمس والقمر وتكليفهما بخدمة الإنسان في قوله : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ مظهرا مِن مظاهر القُدرة التي تستوجب الوحدانية وإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى .

ويتساءل هنا المؤمنون المقرون بوجود الله وقدرته : ألا تكفي تلك الشواهد ؟ ألا يعترف هؤلاء بعد تلك الأدلة السَّاطعة والبراهين البيِّنة ؟ ألا يخلص هؤلاء العبادة لخالقهم ومدبِّر شؤونهم ومُسخّر كلّ ما في الكون لخدمتهم ، حتَّى كأنَّ الكون كلّه طوع أياديهم ؟! .

وفي قوله تعالى : ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ تجد الاستدلال على كَمال قدرة الخَالق ــ سُبحانه وتعالى ــ قد أخذ شكلا مُغايرا للآية السَّابقة إذ تجد أنَّ الاستدلال ــ وهو أحد آليات الحِجاج كما أسلفنا ــ مشُوب بالامتنان ، وكأنَّ الآية الكريمة مَسوقة لتذكير القوم بآلاء الله ونعمائه عليهم ، والغرض استمالتهم

واستعطافهم ، وقد حمل الامتنان معه تبكيت القوم وتقريعهم وزجرهم بألطف أسلوب ، ذلك لأنَّ أشقَّ شيء على النَّفس تبكيتها بطريق النِّعمة والمنَّة ، فالإقبال على القوم ، والذي جسَّدته كاف الخِطاب في (خلقكم ، لكم ، يخلقكم ، أمهاتكم، ذلكم الله ربكم) هنا جاء لهذا الغرض كما ترى .

ثمَّ إنَّ التعبير بلفظ الإنزال في قوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ مقصود منه إبراز كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ، وبيان امتنانه ــ سُبحانه ــ على الخلق ؛ ذلك لأنَّ " أكثر الأنعام أشد مِن الإنسان ، فكان تسخيره له وتذليله إنزالاً عن قوته وإيهاناً لشدته " [(١)] فاللفظ يتلاءم مع سياق الآيات إلى حدّ بعيد .

وفي حمل لفظ الإنزال كذلك على المجاز لا على الحقيقة ، بأن يكون المقصود أنَّ " هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكله مِن نبات ، والنَّبات لا يخرُج إلا بالماء النازل من السَّماء ، فكأنَّ الأنعام نازلة من السَّماء ؛ لأنَّ سبب سببها منزل منها...، أو أن (أنزل) هنا بمعنى أنشأ وأوجد ، أو لأنَّ الخلق إنَّما يكون بأمر مِن السماء " [(٢)] تلاقٍ مع

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٦ / ٤٥٦ ، ٤٥٧

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للشيخ محمد سيد طنطاوي ١٢ / ١٩٨ ــ ط : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ــ الفجالة ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٩٩٨ م .

غرض إبراز قدرة الخالق ، وكأنَّ الآية الكريمة توجّه أنظار هؤلاء الكفار إلى السَّماء ، ليكون في تطلُّعهم إلى السَّماء تطلّع إلى الخالق المُستحق للإخلاص في العبادة .

ولَمَّا كان مقصود النَّظم هنا إبراز امتنان الخالق على المخلوق ، تجده قد قدَّم المُنعَم عليه : (لكم) على المُنعَم به : (من الأنعام ثمانية أزواج) ، وقدَّم كذلك حقيقة المعدود : (من الأنعام) على العدد : (ثمانية أزواج) .

هذا ، وفي تأخير المفعول لون مِن التَّشويق ، يقول أبو السُّعود : " وتقديمُ الظَّرفين على المفعولِ الصَّريحِ لما مرَّ مراراً من الاعتناءِ بما قُدِّم ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّر ، فإنَّ كون الإنزالِ لمنافعِهم وكونَه من الجهةِ العاليةِ من الأمورِ المهمَّةِ المشوِّقةِ إلى ما أُنزل لا محالةَ " (١)

وفي قوله : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ إشارة إلى مراحل خلق الجنين في بطون الأمهات ، فهو عود على بدء لقوله :﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا

ذكر الهرري أن قوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ من أساليب التدريج ، فإنَّه عبَّر عن الأزواج بالإنزال ؛ لأنَّها تكونت بالنبات ، والنبات بالماء المنزل . ينظر حدائق الروح والريحان للهَرَرِيّ ٢٤ / ٥١٨ .

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٧ / ٢٤٣ ــ ط : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .

﴿ زَوۡجَهَا ﴾ وآثر المضارع هنا لغرض الاستحضار الذِّهني لكيفية خلق الإنسان ، حتَّى تظهر له عظمة قدرة الله سُبحانه التي مِن شأنها إفراد القادر بالعبادة ، وإثبات أنَّ الله هو الواحد الأحد .

وفي قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾ تجد النَّظم الكريم قد استحضر المُشار إليه ، وهو الله سُبحانه وتعالى ، للتأكيد على حضور مظاهر القدرة الإلهية أمام كلّ ذي عينين ، وأنَّها ماثلة تُجَاههم ، ما عليهم إلا البصر لو كانوا يبصرون ! وفي الإشارة أيضًا إشارة إلى غبائهم بأنَّهم لا يدركون إلا المحسُوسات المُجرَّدة ، ففي الكون الكثير مِن الدَّلائل والشَّواهد النَّاطقة بوحدانية الله تعالى وقدرته .

وفي إيثار التعبير بلفظ الربوبية عقب لفظ الألوهية : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾ إشعار بأنَّ هذا الإله مع كمال جلاله وسُلطانه ، ومع جُحودكم وعنادكم الذي يُترجِم له اتخاذكم معبودا غيره فإنَّ كلَّ ما مِن شأنه صلاح أمركم واستقامة شؤونكم فهو من فضله حاصل .

ويمكن تلخيص الخصائص الأسلوبية لأسلوب الفرض والتقدير في هذا المقام في تفاعل أسلوب الفرض والتقدير مع الآليات الحجاجية الأخرى كالاستدلال العقلي الذي جاء عقيبه ، وكان في ثوب أكثر تفصيلا منه ، مع أنه لازم عنه وفرع منه ، كما بان من خلال التحليل ، وبرزت في الاستدلال خاصية التدلّي مِن الأقوى إلى ما دونه ، وتكثيف ذكر أوصاف الله وأسمائه الحسنى ، والله تعالى أعلم بمراد كتابه .

****

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أخذ الحِجاج العقلي هنا شكل الحوار الذي بناه النَّظم الكريم على حقيقة ثابتة عند مَن يُحاجهم ، وهي حقيقة خلق السَّموات والأرض (أدلّ دليل على قدرة الخالق سُبحانه) فترى النَّظم عند قوله : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ يسلك طريق الاستفهام التوبيخي التكذيبي في إثبات خور تلك الآلهة التي يعبدونها من دون الله (الأصنام) حيث نفى عنها القدرة على كشف الضرّ أو إمساك الرَّحمة ، وقد جاء التعبير بلفظ التأنيث : (هن كاشفات ، هن ممسكات) للدَّلالة على إبراز " كمال ضعفها ، فإنَّ الأنوثة مظنّة الضَّعف ، ولأنَّهم كانوا يصفونها بالتأنيث ، ويقولون : اللات والعزى ومناة " [١]

(١) تفسير الرازي ٢٦ / ٢٨٣

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ يحمل في طياته معنى الفرض والتقدير ، وقد وظَّفه النَّظم أحسن توظيف في إقناع الكفار حيث بيَّن لهؤلاء الكفار حقيقة الأنداد ، ووضَّح ضعفهم وخورهم في أكشف صورة ، وأوضح حال .

فالفرض والتقدير الذي آثر ثوب الاستفهام خاصة قد كان الأسلوب الرئيس الذي وضح حال الأنداد الذي مِن شأنه عدم أهليتها للعبادة .

هذا ، ولا يغفل أثر الطباق : (بضر ، برحمة) في تجلية هذه المعاني ، حيث أبرز في آن واحد بالغ قدرة الله ، وفرط ضعف تلك الأنداد التي يعبدونها من دون الله . والله تعالى أعلم بمراد كتابه .

****

المبحث الثاني :

بلاغة ضرب المثل في تحقيق معنى الإخلاص .

جاء المثل في سورة الزُّمَر الكريمة لتصوير الإخلاص وتجسيمه في مرأى العين بصورة واضحة ، فبين المثل والإخلاص مقصود السُّورة الكريمة علاقة وارتباط وثيقين ، حيث إنَّ المثل القرآني هنا ألقى الضوء على البون الواسع بين الإخلاص وعدمه ، وأراك ما بينهما من تفاوت ، وأطلعك في صورة لا تخطئها العين ــ لما تحمله مِن كشف وبيان ــ حقيقة الإخلاص وكأنَّه رفع أستارها ، وكشف ما بها من خفاء ، وهذه هي طبيعة الأمثال ، وما توظَّف له .

وللمثل بوجه عام قيم بلاغية يتطلبها صاحب البيان ، ومِن أهمها التأثير في النَّفس ، وهو غاية الحجاج والإقناع ، يقول أبو حيان ــ رحمه الله ــ : المقصود من ذكر المثل أنَّه يؤثّر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ؛ لأنَّ الغرض مِن ضرب المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ، ويصير الحسّ مطابقاً للعقل " (١)

ويقول الزَّمخشري ــ رحمه الله ــ : " ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق ، حتَّى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن ، والغائب بأنَّه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الآبي ، ولأمر ما أكثر

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ــ تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ١ / ٢٠٧ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١ م .

الله في كتابه المبين ، وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء " (١)

هذا ، وقول الزمخشري : (وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الآبي) يبرز تلاقي المثل القرآني مع أسلوب الحجاج أيَّما تلاقٍ ، ويؤكّد على دوره البالغ الأثر في الإقناع والتسليم وكيف لا ؟ والمثل " يخاطب الفطرة بمنطقها القريب المفهوم " (٢) وهو أعون شيء على البيان (٣)

ولله در الفيروز آبادي القائل ، وهو يتحدَّث عن أمثال القرآن الكريم : " وكلّ مَثَل من هذه الأمثال دُرْج جواهر ، وبُرْج زواهر ، وكنز شرف ، وعالَم عِلم ، وحُقُّ حقائق ، وبحار دُرَر دِراية ، ومصابيح سالكي مسالك السنة ، ولهذا يقال : الأمثال سُرج القرآن " (٤)

هذا ، وتنويع طُرق الحِجاج في السُّورة الكريمة ملمَح أُسلوبي بيِّن يعكس أنَّ الإخلاص بوصفه مقصودا رئيسا تتجاذبه أساليب الحجاج المتنوعة في السُّورة

---

(١) الكشاف ١ / ٧٢ .

(٢) الظلال ٥ / ٣٠٥٠

(٣) البرهان في علوم القرآن ١ / ٤٨٧

ويقول أيضا : " وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس ". ينظر : البرهان للزركشي ١ / ٤٨٦

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـــ تح : محمد علي النجار ١ / ٦٩ ـــ ط : ثالثة ـــ القاهرة ـــ ١٤١٦ ه ـــ ١٩٩٦ م .

الكريمة ، كلٌ يؤدي في موضعه الأشكل به دوره من خلال علاقته بالإخلاص كما أسلفنا .

ففي قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ آثر النَّظم الكريم طريق ضرب المثل ؛ لأنَّه الأوفق بحال هؤلاء المعاندين ، فضرب المثل هنا وظّف هنا أتم توظيف في محاولة خطاب هذه العقول التي حادت عن جادّة الصَّواب ، والإقناع بهذه الطريقة أقرب وأوضح ، إذ فيه تمثيل حالة بأخرى .

فهذا المثل القرآني قد جسَّد للمخاطَبين حقيقة التوحيد المحمود والشِّرك المذموم في مرآة واحدة ، ومِن ثَمَّ يُمكن القول بأنَّ الأمثال ولاسيَّما أمثال القرآن الكريم عندما توظَّف في مقام الإقناع تجسِّد المراد وتكشف المقصود في أظهر صورة ، وأوضح هيئة .

فمعنى الآية الكريمة : " اضرب لقومك مثلاً وقل لهم ما يقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعي أنه عبده ، فهم يتجاذبونه في حوائجهم ، وهو متحيّر في أمره ، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون ، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر ، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيّهم أولى بأن يطلب رضاه ، وأيّهم يعينه في حاجاته ، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم ، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على

سبيل الإخلاص ، وذلك المخدوم يعينه على مهماته ، فأيّ هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً ، .. وهذا مثل ضرب ، في غاية الحسن ، في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد " (١)

يكمُن الإقناع في سَوق هذا المثل في إبراز وجُوب الاقتصار على معبود واحد يتَّصف بكلّ صِفات الجلال التي مِن شأنها تلبية حاجات العباد ، ولاسيَّما قد ثبت عقلا ونقلا استحالة صَلاح هذا الكون بأكثر مِن إله .

هذا ، والنَّاظر في قوله تعالى :﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ووظيفة الاستفهام الرئيسة التبكيت والتقريع يدرك بلاغة النَّظم القرآني في تعامله مع المتكبِّرين المعاندين ، حيث إنَّ الاستفهام يكاد يوهمك أنه سُبحانه ينتظر جوابهم ، وغرضه أن يترك لهذه العقول مساحة في التفكُّر والتدبُّر وإعمال العقول التي صدأت للوصول بنفسها إلى الإقناع ، وفيه أيضًا " إيذانٌ بأنَّ ذلك مِن الجلاء والظُّهور بحيث لا يقدرُ أحدٌ أنْ يتفوَّه باستوائِهما ، أو يتلعثم في الحُكم بتباينهما ، ضرورةَ أنَّ أحدهما في أعلى عِلِّيِّينَ ، والآخرُ في أسفلِ سافلينَ " (٢)

هذا ، وقد بدا الإقناع واضحا مِن خلال المثل القرآني ، حيث كان للمثل دور بيِّن في تصوير قُبح الإشراك ، وحُسن عاقبة التوحيد ، وإبراز وجوب إخلاص العبودية له سُبحانه وتعالى ، وذلك لما يحتويه ضَرب المثل مِن تقريب وتوضيح

(١) تفسير الرازي ٢٦ / ٢٧٧

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٧ / ٢٥٣ .

وحُسْن تصوير وبيان .

ولا يخفى على مُتأمِّل بصير خروج هذا التصوير والبيان من رَحِم المثل ، والله تعالى أعلم بمُراد كتابه .

****

المبحث الثالث :

بلاغة الاستدلال في تحقيق معنى الإخلاص .

عرضت السورة الكريمة في غير موضع للاستدلال العقلي على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى ، ويعتبر الاستدلال في السُّورة الكريمة ملمحا أسلوبيا فريدا تشكّل منه بناء الحجاج العقلي في السُّورة ، فقد آثره النَّظم الكريم ليكون مكوِّنا حِجاجيا مهمًّا في خِطاب عقول هؤلاء الكفار المعاندين من خلال حكاية دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى المُشاهدة عيانا ، والتي تنطق بكمال وحدانيته وربوبيته ، وأنَّه المعبود بحقّ الذي يستحقّ الإخلاص في العبادة .

ويجب التأكيد هنا على أنَّ طريق الاستدلال يمثِّل البرهان التام على وجوب الإخلاص لله سُبحانه وتعالى ، فالعلاقة بين الإخلاص والاستدلال وثيقة تكمُن في دفع ما يتوهَّمه هؤلاء الكفار المعاندون ، ودحض اعتقادهم الكاذب بأنَّ للكون آلهة أخرى غيره سبحانه وتعالى عما يعتقد الظالمون علوا كبيرا ، وفي الاستدلال أيضًا مِن البيان بحقيقة الإله الذي تجب له الوحدانية ما لا يخفى .

هذا ، وقد برز ــ في أكشف صورة ــ دحض توهُّم أن يكون هؤلاء الشركاء آلهة تعبد مِن دون الله ، مِن أسلوب الاستدلال الحجاجي مِن خِلال بَسْط تلك الدَّلائل الدالة على كمال وحدانيته وربوبيته ، والتي تستلزم كمال التسليم وتمام الإذعان وغاية الخضوع والاعتراف بأنَّه الإله المستحق لأنْ تنصرف إليه النُّفوس .

فالاستدلال هو : تقرير ثبوت الأثر لإثبات المؤثر ، والاستدلال في عرف أهل العلم هو تقرير الدليل لإثبات المدلول سواء كان ذلك من الأثر إلى المؤثر أو

بالعكس ، أو من أحد الأمرين إلى الآخر [١]

وقد جاء في لسان العرب تعريف اسم الله الظاهر بأنَّه هو : الذي ظهر فوق كل شيء ، وعلا عليه ، وقيل : عُرِفَ بطريق الاستدلال العقلي بما ظهر لهم من آثار أَفعاله وأَوصافه [٢] ولأهمية الاستدلال ، قال العلماء : الاستدلال بالشاهد على الغائب أحد أقسام الأدلة [٣] .

هذا ، وتحسن الإشارة إلى أنَّ بلاغة الاستدلال العقلي في السُّورة الكريمة ناشئة من كونه استدلالا قريبا مِن أفهام هؤلاء المخاطبين مِن الكفار ، فالمتأمِّل يرى أنَّ الاستدلال بدأ ببيان قدرة الله سُبحانه وتعالى فيما حولهم مِن خلق السموات والأرض وما فيهما مِن مشاهد كونية ، ثمَّ صرفهم للنظر في أنفسهم ببيان حكاية خلقهم وإنزال الأنعام التي يتنعمون بها ، ثمَّ بحكاية توفّي الأنفس عند النوم ، وإجمال ذلك كلّه ببيان أنَّه سبحانه له الخلق والحفظ والتدبير لكلّ ما في الوجود .

يقول ابن أبي الإصبع ــ رحمه الله ــ : " إنَّ الاستدلال بما قرب من نظر الخَصْم أوضح مِن الاستدلال بما بعُد " [٤]

---

(١) الكليات ــ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ــ أعده للطبع د / عدنان درويش ــ و محمد المصري باب الألف والسين ص ١١٤ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣١٩ ه ــ ١٩٩٨ م .

(٢) لسان العرب ــ مادة (ظهر)

(٣) تفسير الرازي ٢ / ٣١ .

(٤) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري ــ تح : حفني محمد شرف ص ٥٤٥ ــ ط : لجنة إحياء التراث الإسلامي .

هذا ، وقد حكت السُّورة الكريمة عدّة دلائل على كمال وحدانيته سبحانه وتعالى وربوبيته ، الأول عند قوله عز وجل : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (١) وقد عرضنا لهذا الاستدلال قبل هذا الموضع بالتحليل والبيان ، حيث استلزمه أسلوب الفرض والتقدير في تنزيه الله ــ عز وجل ــ عن اتخاذ الولد كما يزعم هؤلاء الكفار .

الثاني : حكاية نزول الماء من السماء ، وذلك عند قوله جلَّ شأنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ

(١) سورة الزمر : الآيتان ٥ ــ ٦ .

بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (١)

الثالث : في حكاية توفِّي الأنفس ميتة ونائمة ، وإمساكها وإرسالها إلى أجل مُسمَّى ، وذلك عند قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢)

الرابع : في حكاية الخلق والحفظ والتدبير له سُبحانه وتعالى عند قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ

(١) سورة الزمر : ٢١ .

(٢) سورة الزمر : الآيات من ٤٢ ــ ٤٤

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (١)

****

فمن دلائل قدرته سبحانه وتعالى ، وفيه أيضًا إشارة إلى البعث والنشور ، قوله جلَّ شأنه : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (٢)

(١) سورة الزمر : الآيات من ٦٢ ــ ٦٦

(٢) سورة الزمر : ٢١

فالآية الكريمة استدلال على كمال قدرته سُبحانه التي توجب الوحدانية ، وهو استدلال يتَّسم كعادته في السُّورة الكريمة بالقرب والوضوح ، فنزول الماء من السماء ، وما ينشأ عن نزوله من خروج الزروع والثمار ، وما يتبع ذلك مِن أحوال النضج والحصاد " ظاهرة تتكرر في أنحاء الأرض ، حتَّى لتذهب الألفة بجدتها ، وما فيها من عجائب في كل خطوة من خطواتها ، والقرآن يوجه النظر إلى رؤية يد الله وتتبع آثارها في كلّ خطوة مِن خُطوات الحياة " (١)

هذا ، والنَّاظر هنا يرى أنَّ الاستدلال قد ورد في ثوب الاستفهام التقريري ، ففضل الاستفهام على الاستدلال أنَّه يستبصرهم ويرغبهم في النظر إلى آثار قدرة الله فيما تحت أبصارهم التي لا تكاد ترى ، وهذا أدلّ دليل على وضوحه ، ولا ريب أنَّ " الاستدلال بما قرب مِن نظر الخصم أوضح مِن الاستدلال بما بعد " (٢) فهو أوفق بالحال ، وأدعى للإقناع والتَّسليم .

وقد جاءت خاتمة الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لتقريع القوم وتوبيخهم وزجرهم ، والإشارة فيها مزيد استحضار للمشار إليه ، وهو حكاية نزول الماء من السماء ، فتكرار الاستدلال مرة بطريق التقرير ، وأخرى بطريق الإشارة ، الغرض منه التَّمكين وزيادة التقرير في نفْس المخاطب .

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٤٧

(٢) تحرير التحبير ص ٥٤٥

ولا يخفى عليك أنَّ الاستدلال هنا قد دفع ما قد يتوهم أن لغير الله قدرة وإرادة في تسيير هذا الكون العجيب ، فمَن مِن هؤلاء الأنداد يملك مثل ذلك ؟! موضّحا أنَّ ذلك لله وحده ، ومبينا أنَّ تلك الآلهة التي يعبدونها مع الله عاجزة لا تنفع ولا تضر ، فللاستدلال في تحقيق معنى الإخلاص أثر واضح . والله ــ تعالى ــ أعلم بمراد كتابه .

****

وفي قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يذكر النَّظم الكريم دليلا مِن دلائل قُدرة الله سُبحانه وتعالى وهو " توفي الأنفس مائتة ونائمة ، وإمساكها وإرسالها إلى أجل مُسمَّى " [١] ولا شكَّ أنَّ الجمع بين

(١) حدائق الروح والريحان للهرري ٢٥ / ٢٣

المتناقضات في الآية الكريمة (الإمساك ، الإرسال) لأرواح الخلق هنا مُقتضى مِن مُقتضيات الربوبية ، فالربّ المُستحقّ للعبادة وحده مَن يفعل ذلك ، إذ ذاك مظهر مِن مظاهر طلاقة يد القدرة وفرض سُلطانها ، فللطباق أثر بيِّن في تجلية خُصوصيات الذَّات العليَّة كما ترى .

هذا ، وتلمح هنا تعبير النَّظم الكريم بجمع القلَّة : (الأنفس) دون جمع الكثْرة في قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ لغرض الإيماء إلى " أنَّها وإنْ تجاوزت الحصر ، فهي كنفس واحدة ، ولعلَّه لم يوحده ، لئلا يظنّ أنَّ الوحدة على حقيقتها " (١)

ثمَّ إنَّ النَّظم الكريم قد عبَّر بالجمع في تذييل الآية الكريمة ، وهو يشير إلى حقيقة فعل توفِّي الأنفس : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لإبراز عظم مشهد توفِّي الأنفُس وإمساكها وإرسالها ، فمفردات الآية الكريمة أدَّت دورها مع السِّياق العام للآية في تصوير فرْط قدرته سُبحانه .

يتجلَّى الإقناع بذكر إحدى صفات المعبود الذي يستحقّ الإخلاص له بالعبادة هنا في إيثار مشهد توفِّي الأنفُس ميتة ونائمة ، إذ المشهد محْسوس مُتكرِّر أمام أعينهم في كلّ لحظة ، ولذا تجد للمضارع حُضورا قويًّا : (يتوفّى ، فيمسك ، يرسل) ، كما أنَّ ظهور طلاقة يد القدرة في هذا المشهد بيِّن وواضح لكل ذي عينين .

انتقال النَّظم الكريم في مقام إبراز مظاهر قُدرة الخالق سُبحانه ومدى تصرفه في

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٦ / ٥١٨

هذا الكون ، ابتداء من حكاية خلق السموات والأرض ، وخلق الجنين في بطن أمه ، ثمَّ حكاية إنزال المطر وما يتبع ذلك من إخراج الزروع والثمار ، ووصولا إلى حكاية توفي الأنفس ، يمثِّل تنوُّع الاستدلال وتعدُّد طرقه ، وهدفه في ذلك السَّيطرة على نفس المخاطَب والهيمنة على عقله بغية إقناعه ، ولعلَّ هذا يبرز ملمحا أُسلوبيا ، ومظهرا مِن مظاهر الإقناع في النَّظم القرآني ، فالطَّرْق على عقل المعاند يحتاج إلى أكثر مِن جهة حتَّى يصل المحاجّ إلى تسليمه وتفنيد ما ثبت في نفسه ، وانطبع في فؤاده .

يقول الطَّاهر بن عاشور : " ويجوز أن يكون انتقالاً إلى استدلال على تفرُّد الله تعالى بالتصرُّف في الأحوال ، فإنَّه ذكر دليل التصرُّف بخلق الذوات ابتداءً من قوله: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) إلى قوله : (فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) ، ثمَّ دليل التصرُّف بخلق أحوال ذوات ، وإنشاء ذوات من تلك الأحوال ، وذلك من قوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ) إلى قوله : (لأُولى الألباب) وأعقَبَ كل دليل بما يظهر فيه أثره من الموعظة والعبرة والزجر عن مخالفة مقتضاه ، فانتقل هنا إلى الاستدلال بحالة عجيبة من أحوال أنفُس المخلوقات ، وهي حالة الموت وحالة النوم ... فتكون الجملة استئنافاً ابتدائياً للتدرُّج في الاستدلال ، ولها اتصال بجملة : (خلق السموات والأرض بالحق) وجملة : (ألم تر أن الله أنزل) المتقدمتينِ " [١]

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٤

ثمَّ إنَّ النَّظم الكريم في قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ عاد ثانية لحكاية حال الكفار الذي حكاه عنهم ابتداء في صدر السُّورة عند قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ والذي كان حائلا بينهم وبين إخلاصهم في عبادة مَن يستحقّ ، وتراه عند قوله : ﴿ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ يحاجّهم بعجز هؤلاء الشُّفعاء وضعفهم وعدم قدرتهم ، ومِن بلاغة التعبير القُرآني هُنا إيثار لفظ الكون في قوله : (أولو كانوا) إذ فيه الإشارة إلى تمكُّن العجز والوهن فيهم ، حتَّى كأنَّه سجيَّة فيهم لا يزول عنهم أبدا ، وإيثار المضارع المنفي : (لا يملكون) يشي بأنَّ صفة ملك الشفاعة للغير " لا تتجدَّد لهم هذه الصِّفة " [١] في المُستقبل ، فكَما أنَّ الوهن كان وصفهم في الماضي والحال ، فإنَّه أيضًا هو وصفهم في المستقبل ، وتنكير : (شيئا)

(١) نظم الدرر ١٦ / ٥٢١

هنا جاء لإفادة العموم والشمول ، فمَن بهذا العجز والوهن كيف يملك الشفاعة لغيره ؟ !

وإيثار المضارع المنفي : (لا يعقلون) يشي كذلك بأنَّ العقل لن يتجدَّد لهم في الآجل ، وهذا يعني أنَّ البلَه والحمْق مطبوع فيهم ألبتة .

وفي قوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بيان أنَّ الله سُبحانه وتعالى يملك الشَّفاعة جميعها وحده ، ولا ينازعه فيها أحد ، وهذا دليل على كونه الإله المستحق للعبادة ، والذي يجب أن ينصرف الجميع لعبادته ؛ لأنَّ عظمته تفوق عظمة كلّ أحد ، وترى النَّظم أتبع ذلك بوصف الله بوصْفين : الأول : ملكه سبحانه وتعالى للسَّموات والأرض ، والآخر : كونه سبحانه وتعالى إليه المرجع وحده يوم القيامة وذلك للتأكيد على استحقاقه وحدَه الشَّفاعة التي هي مظهر مِن مظاهر الإلهية ، فالوصفان يستغرقان دنيا العباد وآخرتهم .

****

وأمَّا قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ

أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فهو خاتمة الدَّلائل القاطعة بوحدانيته سُبحانه وتعالى اللازم عنها إفراده وحده بالعبادة ، وفيه ترى أنَّ النَّظم الكريم قد توفرت عنايته ــ في تركيز وإجمال ــ على ذكر بعض صفات الجلال التي تشي بالقوة والعظمة والكبرياء ، وكأنَّ الآيات هنا بلغت مبلغا بعيدا ، ووصل الحِجاج غايته ؛ إذ إنَّ الاستدلال على وحدانية الخالق وقدرته بصفات الخلق والحفظ والتدبير لكلّ ما في الوجود أقوى من كلّ ما اشتملت عليه السُّورة الكريمة مِن دلائلَ وشواهد .

أليس التذكير هنا بالصِّفات الثلاثة معًا : (الخلق ، والحفظ ، والتدبير لكلّ ما في الوجود) في قوله : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أقوى وأبلغ ممَّا ذكره النَّظم الكريم مفصَّلا في صدر السُّورة الكريمة عند قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى

ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ لأنَّ ما في الآية الكريمة من حكاية خلق السَّموات والأرض وما تلا ذلك مِن ذكر بعض مشاهد الكون ، ثمَّ حكاية خلق الجنين في بطن الأم ، وإنزال الأنعام بعض ما في قوله ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ والعلاقة بين الموضعين علاقة تفصيل وإجمال ، فصَّل أولا ، وأجمل ثانيا .

ثُمَّ أليس التذكير هنا بالصفات الثلاثة معا : (الخلق ، والحفظ ، والتدبير لكل ما في الوجود) أقوى وأبلغ مِن الحجاج العقلي الذي حكاه النَّظم الكريم عند قوله : ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ لأنَّ وصف الذات العلية بهذه الصِّفات يغني عن الحاجة للولد ، بل يغني عن الحاجة مطلقًا : (الولد أو غيره) ممَّا

يحتاج إليه الخلق الضعفاء .

ثمَّ إنَّ حكاية عدم إمكان كشف الضرّ أو حُصول النَّفع التي يتَّصف بها هؤلاء الأنداد التي يدعونها هؤلاء الكفار مِن دون الله ، والتي حكتها السُّورة الكريمة عند قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ قد ذكر نقيضها الذي يعتبر خُصوصية مِن خُصُوصيات الإلهيَّة المستحقَّة للعبادة في قوله : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فالعلاقة بين الموضعين علاقة الشَّيء بضده ، فالأولى ذكرت حال الأنداد في معرض الذَّم ، والأخرى ذكرت حال الأرباب في معرض التذكير والفخر .

ثمَّ إنَّ حكاية توفي الأنفس نائمة وميتة وإمساكها وإرسالها إلى أجل مسمَّى التي استدلَّ بها النَّظم الكريم على بالغ قدرته سُبحانه ، وما جاء عقيبه مِن الإشارة إلى ضعف الشفعاء والتأكيد على نفي الملكية والعقل عندهم في قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى

قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ مندرجة أيضًا تحت حكاية الحفظ والتدبير لكلّ ما في الوجود عند قوله : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وأنَّ وصفه سُبحانه بالحفظ والتدبير وملك أمور العباد أعمّ وأشمل وأدلّ على فرط القدرة مِن حكاية توفّي الأنفُس ، ولذا تجد أنَّ حدة الإنكار في الاستفهام في الموضعين يتناغم مع أوصاف الخالق سُبحانه والسِّياق ، فعند حكاية توفّي الأنفس جاء الإنكار بما حكاه النَّظم عند قوله : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ أقل حدة ، وهو إنكار فيه تهكُّم وسُخرية ؛ لأنَّ السِّياق هنا لم يحكِ طلبهم منه صلَّى الله عليه وسلم أن يعبُد آلهتهم ، وحكاه في الموضع الآخر ، بل اقتصر على حكاية اتخاذ هؤلاء الكفار شفعاء لهم من دون الله ، فالإنكار قد تناغم مع حال المُشركين

كما ترى .

هذا ، وقد كان لمقام الإعراض عنهم بتوجيه الخطاب للنبي صلَّى الله عليه وسلم وذكر أوصاف الإله المُستحق للعبادة عن طريق إيثار طريق القصر الذي يترجم خطأ اعتقادهم في قوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أثر واضح في الإنكار ، فلم تكن حدَّة الإنكار ضعيفة .

وفي الموضع الآخر جاء الإنكار أكثر حدَّة مُترجما قوَّة الانفعال في أبلغ حال : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فقد جسَّد حدَّة الإنكار أولا مقام الإعراض عنهم ، فخطابه سبحانه كان موجها لنبيه صلى الله عليه وسلَّم وليس لهم ، ثمَّ إنَّ تسليط الإنكار على المفعول لا الفعل يُؤذن بذلك ، فالمُنكَر هنا عبادة غيره سُبحانه ، ثُمَّ الوصف بالجهل ، وما فيه من الزَّجر والتقريع ما لا يخفى ، ثمَّ الإعراض ثانية عنهم بتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلَّم ، وتخويفه بإحباط عمل الدنيا ، وخُسران الآخرة ، وذلك على سَبيل الفرض والتمثيل ، ثمَّ مجيء الكلام في ثوب القصر ، بتقديم ما حقُّه التأخير (المفعول على عامله) في

قوله : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وما في الأسلوب مِن شدّة انفعال ، إذ يصوِّر الأسلوب انتهاء الحوار والمجادلة ملقيا الحقيقة ومصورا المطلوب في ثوب واضح ما بعده وضوح ؛ لأنَّ إخلاص العبادة لله وحده هو الحقيقة المُطلقة التي ينبغي أن يعلمها كلّ مخلوق .

هذا ، ويُمكن القول : إنَّ الحجاج في سورة الزُّمَر قد أخذ أشكالا متنوعة تتناسب مع المقام ، أوجزها فيما يأتي :

أولا :

تصديه أولًا لتصحيح ما يضرب العقيدة في مقتل ، وهو الادّعاء الكذوب لهؤلاء الكفار بنفي صفة الوحدانية عنه سُبحانه وتعالى معتقدين بأنَّ لله ولدا ، وفي هذا المقام اتَّكأ النَّظم على أُسلوب الفرض والتقدير خاصَّة لما يحمله هذا الأسلوب مِن طاقة هائلة مِن الإقناع والتَّسليم ، إذ فيه يتَّجه الخِطاب نحو العقل مُباشرة ، وتكمن في هذا الطريق كذلك قوة على المبالغة والتقرير والتوكيد ما لا يخفى .

وآثر كذلك أسلوب الفرض والتقدير في إثبات عجز آلهة هؤلاء الكفار وخورها من خلال بيان أنَّها لا تملك كشف الضر ، أو إمساك الرحمة لو أرادهما الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم .

ثانيا :

كان الاستدلال بوصفه وسيلة حجاجية قريبة إلى إفهام الأفهام عمادَ النَّظم الكريم في سورة الزُّمَر في تحقيق معنى الإخلاص مقصود السُّورة الرَّئيس ، ذلك لأنَّ الحِجاج مِن خلال الاستدلال العقلي يكون أكثر إقناعا ؛ لأنَّه يعتمد على آليات محسوسة

مجرَّدة يعيها الجاهل قبل العاقل ، والأعمى قبل البصير ، وقد رأينا كيف وظفت السورة حكاية بعض مظاهر الكون مِن مثل خلق السموات والأرض ، وتكوير الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر للاستدلال على كمال قدرته سبحانه التي تستلزم الإقرار بوحدانيته والإخلاص له وحده بالعبادة ، والملاحظ على الاستدلال في السورة الكريمة تنوُّعه ، ففي الحديث عن ظواهر الكون يُمكن القول بأنَّه كان استدلالا مجردا ، لكن عند الحديث عن قدرة الله تعالى في خلق الإنسان وإنزال الأنعام شاب الاستدلال الامتنان ، وهذا يجعل الاستدلال يخاطب العقل والقلب في آن واحد فيكون أكثر حملا على الإقناع والإذعان والتسليم .

ثمَّ إنَّ الاستدلال في السُّورة الكريمة يأخذ منحى آخر ، بلا شك هو الأنسب بحال الموقف وحال مَن يطلبه الحجاج ، حيث رأينا ــ عند حكاية توفي الأنفس مائتة ونائمة ــ أنَّ الاستدلال على كمال قدرته سبحانه قد تبعه استدلال آخر على كمال عجز الأنداد والشفعاء جاء في ثوب الزَّجر والتوبيخ والتقريع ، وهنا يُمكن القول : إنَّ الاستدلال في السُّورة تتنوع أحواله وتختلف درجاته تبعا للسياق .

هذا ، وتجد ــ ويُمكن أن نعتبر هذا عجيبة مِن عجائب البيان القُرآني ــ أنَّ السُّورة الكريمة عند حكاية صفات الخلق والحفظ والتدبير لكلّ ما في الوجود له سُبحانه قد أجملت كلّ ما فصلته السُّورة في ثناياها والذي جاء في ثوب الاستدلال ، وكأنَّ الاستدلال في السُورة الكريمة موصوف بصفتي التفصيل والإجمال ، ولعل النظم الكريم هنا يرشدنا إلى أنَّ صاحب أيّ بيان بليغ حين يوظّف الاستدلال آلية مِن آليات الإقناع يحسن منه إيثار طريق البسط قبل القبض ، والتفصيل قبل الإجمال ،

ليكون تركيز الاستدلال في ثوب الإجمال آخر عهده بالمخاطب .

ثالثا :

اعتمدت السُّورة الكريمة على ضرب المثل طريقا من طرق الحجاج ، فقد وظفتْ الأمثال أحسن توظيف في تقبيح الشِّرك وزجره ، وتحسين التوحيد والحثّ عليه في آن واحد ، ولا شكَّ أنَّ ضرب الأمثال طريق بياني مهمّ في توصيل المقصود للمخاطب بأقرب طريق ، وأوجز لفظ ، فهو يجمع بين الإمتاع والإقناع .

فتنوُّع آليات الحجاج في سُورة الزُّمَر ملمح أسلوبي بيِّن يؤكِّد دور الحِجاج البالغ الأهمية في تحقيق مقصد السُّورة وغرضها وهدفها .

رابعًا :

كان للإخلاص أثر واضح في خصوصية الحجاج القرآني ، حيثُ إنَّه قد آثر مِن الأساليب أو الآليات الحجاجية ما يتَّفق وطبيعة تحقيق هذا المعنى في الأفهام ، فأسلوب الفرض والتقدير مِن أقرب الطُّرق التي تحقِّق هذا المعنى ، لِمَا فيه مِن دلالة التأبيد المُطلَق ، فضْلا عن ما يشتمله الأسلوب مِن المُبالغة والتحقيق والتأكيد .

وطريق الاستدلال يدفع بالبرهان السَّاطع ما قد يتوهّم أنَّ غير الله ــ سُبحانه وتعالى ــ متَّصف بصفات الكمال التي توجب إفراده وحده بالعبادة .

وأمَّا ضرب الأمثال فقد أبرز في صورة لا تخطئها العين ــ لما يحمله من توضيح وكشف وبيان ــ حقيقة الإخلاص ، وكأنَّه يرفع الأستار ، ويزيل الحجب ، ويكشف عمَّا وراءها مِن خفاء ، وهذه هي طبيعة الأمثال ، وما توظّف له . والله تعالى أعلم بمراد كتابه ...

خاتمة البحث

الحَمدُ للهِ وليّ التَّوفيق ، يُوفِّق الطَّائعين إلى مَرضَاته ، ويُهيء لَهم أسْباب النَّجاح والفلاح ، سُبحانه علَى كلِّ شَيء قدير ، وبالإجابة جدير ، والصَّلاة والسَّلام على البشير النذير ، وعلى آله وأصحابه الأطهار الأبرار ، وعلَى التَّابعينَ لهُ ما تعاقَب الليل والنَّهار .

أمَّا بعد :

فقد تصدَّت هذه الدِّراسة إلى إبراز بلاغة أسلوب الحجاج ، وبيان أثره في تحقيق معنى الإخلاص في سُورة الزُّمَر ، وبيَّنت طريقة النَّظم الكريم في توظيف الأساليب البلاغية لتحقيق مقاصد السُّور ومراميها ، وخلصت إلى عدَّة نتائج ، مِن أبرزها :

أولا : القرآن الكريم معين زاخر ، لا ينتهي عطاؤه ما دامت السَّموات والأرض ؛ لأنَّه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه .

ثانيا : دراسة مقصود النَّظم الكريم أمر مهمّ يجب النَّظر إليه ؛ لأنَّ للمقاصد أثرا كبيرا في بناء السّور القرآنية كلّها ، فهي تمسك بزمام البناء كلّه ابتداء بالكلمة والأسلوب ، وانتهاء بطريقة النَّظم التي تمثِّل وجها مِن وجوه الإعجاز القرآني .

ثالثا : لكل سورة سمت خاص في طريقة بنائها يتفق مع مقصود السورة الكريمة وغرضها ، وهذا ما يفسره شيوع عدة أساليب دون غيرها في السورة القرآنية .

رابعا : شكل أسلوب الحجاج في سورة الزُّمَر ملمحا أسلوبيا واضحا ، وقد تبدَّى ذلك بعد قراءات متأنِّية لآيات السُّورة الكريمة .

خامسا : استدعى الحِجَاج العقلي في سورة الزُّمَر أساليب بلاغية أخرى وظَّفها أتمّ

توظيف لخدمة ذلك الغرض الرَّئيس ، كالفرض والتقدير ، والاستدلال ، وغيرها .

سادسا : اعتمدت السُّورة الكريمة على ضرب المثل طريقا من طرق الحجاج ، فقد وظفتْ الأمثال أحسن توظيف في تقبيح الشرك وزجره ، وتحسين التوحيد والحثّ عليه في آن واحد ، ولا شك أنَّ ضرب الأمثال طريق بياني مهمّ في توصيل المقصود للمخاطب بأقرب طريق ، وأوجز لفظ ، فهو يجمع بين الإمتاع والإقناع .

سابعا : كان الاستدلال بوصفه وسيلة حجاجية قريبة إلى إفهام الأفهام عمادَ النَّظم الكريم في سورة الزُّمَر في تحقيق معنى الإخلاص مقصود السُّورة الرَّئيس ، ذلك لأنَّ الحِجاج مِن خلال الاستدلال العقلي يكون أكثر إقناعا من غيره ؛ لأنَّه يعتمد على آليات محسوسة مُجردة يعيها الجاهل قبل العاقل ، والأعمى قبل البصير .

ثامنا : كان للإخلاص أثر واضح في خصوصية الحجاج القرآني ، حيث إنَّه قد آثر من الأساليب أو الآليات الحجاجية ما يتَّفق وطبيعة تحقيق هذا المعنى في الأفهام ، فأسلوب الفرض والتقدير من أقرب الطرق التي تحقق هذا المعنى ، لما فيه من دلالة التأبيد المطلق ، فضلا عن ما يشتمله الأسلوب من المبالغة والتحقيق والتأكيد .

وطريق الاستدلال يدفع بالبرهان السَّاطع ما قد يتوهم أن غير الله ــ سبحانه وتعالى ــ متصف بصفات الكمال التي توجب إفراده وحده بالعبادة .

وأمَّا ضرب الأمثال فقد أبرز في صورة لا تخطئها العين ــ لما يحمله من توضيح وكشف وبيان ــ حقيقة الإخلاص وكأنه يرفع الأستار ويزيل الحجب ، ويكشف عمَّا وراءها مِن خفاء ، وهذه هي طبيعة الأمثال ، وما توظَّف له .

****

هذا ، وتُوصِي الدِّرَاسَة المُشتغلينَ بالدَّرس البَلاغيّ والإعْجَاز القُرآنيّ أنْ يقِفُوا عِند مُدارسة هذا الباب ؛ لأنَّه فاتحة علَى الإعْجاز القُرآني مِن أوسَع نوافذه ؛ إذْ يكشِف عن أَوجُه التناسُب بين الأساليب والمقاصِد ، وبيان أثر مقاصد سور القرآن الكريم على تلك الأساليب .

******

وبعد ،،، فهذا جهدي ، وهو جهد المُقل ، وحَسْبي فيما ابتغيت حُسْن النِّية ، وشرف القصد ، ونبل الغاية ، يرحم الله حازم القرطاجني القائل : " وكيف يظنّ إنسان أنَّ صناعة البلاغة يتأتَّى تحصيلها في الزمن القريب ، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته ، مع استنفاد الأعمار فيها ، وإنَّما يبلغ الإنسان منها ما في قوته أن يبلغه " (١)

وختاما : أسألُه سُبحانه وتعالى أنْ يتقبَّل هذا البحث ، وأنْ يجعله في مِيزان الحَسَنَات ، وأنْ يُحْسِن إليَّ ، وإلى والديّ ، وإلى كلّ مَن أَسْدَى إليَّ نُصْحا ، إنَّه ولي ذلك ، ومولاه .

.. ويا أيُّها القارئ له والنَّاظر فيه : هذِه بضاعةُ صَاحِبها المُزجَاة مَسُوقة إليك ، وهذا فهمه ، وعقله معروض عليك ، لك غُنْمُه ، وعلى مؤلفه غُرْمُه ، ولك ثمرته ، وعليه عائدته ، فإنْ عُدم منك حَمْدا وشكرا ، فلا يعدَم مِنك عذرا ، وإنْ أبيتَ إلا

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ص ٨٨ ــ تح : محمد الحبيب بن الخوجة ــ ط : دار الغرب الإسلامي ــ لبنان .

المَلام ، فبابُه مفتوح ، وقد استأثر الله بالثَّناء وبالحَمد ... [١] .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . (سورة البقرة : آية ٢٨٦)

(١) ينظر : طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص ٧ ، ٨ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .

فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

****

📖 إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ــ ط : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .

📖 أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ــ تح : عبد القادر أحمد عطا ــــــ ط : دار الاعتصام ــ القاهرة .

📖 إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ مصطفى صادق الرافعي ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ١٤٢٥ هـ ــ ٢٠٠٥ م .

📖 البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ــ تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، وآخرون ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١ م .

📖 البرهان في علوم القرآن للزركشي ــ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط : دار المعرفة ــ بيروت ــ ١٣٩١ هـ .

📖 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ــ تح : محمد علي النجار ــ ط : ثالثة ــ القاهرة ــ ١٤١٦ ه ــ ١٩٩٦ م .

📖 البيان والتبيين للجاحظ ــ تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون ــ ط : مطبعة المدني ــ القاهرة ــ صفَّ الكتاب بطريقة الجَمع التصويري : مكتبة الخانجي ــ ط : سابعة ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٨ م .

📖 تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري ــ تح : حفني محمد شرف ــ ط : لجنة إحياء التراث الإسلامي .
📖 التحرير والتنوير للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور ــ ط : دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونُس ــ ١٩٩٧ م .
📖 تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ــ ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ــ لبنان ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .
📖 التفسير الوسيط للقرآن الكريم للشيخ محمد سيد طنطاوي ــ ط : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ــ الفجالة ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٩٩٨ م .
📖 الحِجَاج في النَّص القرآني ــ سورة الأنبياء نموذجا ــ للباحثة / إيمان درنوني ــ رسالة ماجستير ــ مخطوطة ــ كلية الآداب واللغات ــ قسم اللغة العربية ــ جامعة الحاج لخضر باتنة ــ الجزائر ــ ٢٠١٣ م .
📖 الحِجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة ــ أمينة الدهري ــ ط : شركة النشر والتوزيع للمدارس ــ الدار البيضاء ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .
📖 حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهَرَرِيّ ــ ط : دار طوق النجاة ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ ه ــ ٢٠٠١ م .

📖 خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ــ تح : عصام شـــعيتو ــ ط : دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .
📖 دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ تح : د / التنجـــي ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٥هـــ ــ ١٩٩٥ م .
📖 صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) ــ تح : د مصطفى ديـــب البغا ــ ط : دار ابن كثير ــ بيروت ــ ط : ثالثة ــ ١٤٠٧ هـــ ــ ١٩٨٧ م .
📖 طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .
📖 في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم ــ ط : دار الشروق ــ القاهرة .
📖 كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري . تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط : المكتبة العصرية ــ بـــيروت ــ ١٤٠٦هـــــ ــ ١٩٨٦م .
📖 الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ــ تح : عبد الرزاق المهدي ــ ط : دار الكتـــاب العـــربي ــ بـــيروت ــ ١٤٠٧ ه .
📖 الكليات ــ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بـــن موسى الكفوي ــ أعده للطبع د / عدنان درويش ــ و محمد المصري ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣١٩ ه ــ ١٩٩٨ م .

📖 لسان العرب لابن منظور ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ د ت .

📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ــ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٩٥ م .

📖 مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي ــ تح : د / عبد السميع محمد أحمد ــ ط : مكتبة المعارف ــ الرياض ــ ط : أولى ــ ١٤٠٨ ه ــ ١٩٨٧ م .

📖 مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ــ تحقيق : محمد سيد كيلاني ــ ط : دار المعرفة ــ لبنان .

📖 مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبدالعظيم الزرقاني ــ تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ــ ط : دار الفكر ــ بيروت ــ ط : أولى ، ١٩٩٦ م .

📖 منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ــ تح : محمد الحبيب بن الخوجة ــ ط : دار الغرب الإسلامي ــ لبنان .

📖 المنهاج في ترتيب الحجاج ــ أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ) ــ تح : عبد المجيد زكي ــ ط : دار الغرب الإسلامي .

📖 الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري ــ تح : زهير الشاويش ــ محمد كنعان ــ ط : المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠٤ ه .

📖 النبأ العظيم ــ نظرات جديدة في القرآن الكريم ــ د / محمد عبد الله دراز ــ ط : دار الثقافة ــ قطر ــ ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م .

📖 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعى ــ ط : دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة ــ من دون تاريخ .

****